وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي: .....

رقم التسجيل: ط1: 181835077821

رقم التسجيل: ط2: 181835077743

الفضاء المتخيل في الرحلة الجزائرية

"الحسين بن محمد السعيد الورتلاني" - أنموذجا

مذكرة لنيل شهادة الماستر LMD في تخصص: أدب جزائري

إعداد الطالبتين:

- نجاح بيدي.
- آسيا برابري.

أمام لجنة المناقشة:

الرقم	اسم ولقب الأستاذ	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
1	عبد الحكيم سليماني	أ م أ	جامعة المسيلة	رئيسا
2	عبد الكريم معمري	أ م أ	جامعة المسيلة	مشرفا ومقررا
3	عمار مهدي	أ م أ	جامعة المسيلة	ممتحنا
4				ممتحنا

السنة الجامعية: 1444/1443هـ. 2023/2022م.

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

نشكر الله سبحانه وتعالى على فضله وتوفيقه لنا ، والقائل في محكم تنزيل

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ . . . .﴾ الآية رقم: (07) سورة إبراهيم

لقد زفت دموع الأقلام إلى أوراق تخط عليها أجمل العبارات، ولإن كتبنا شعرا طول العمر ينتهي العمر ولا تنتهي الأبيات، فهل بإمكان الأقلام أن تعبر عن الشكر و العرفان ، وهل تكفي الأوراق لكل الكلمات ، فما علينا سوى اختصارها في هذه العبارات :

فكل الشكر

إلى أستاذنا المشرف **(عبد الكريم معمري)** منبع المعرفة و السراج

الذي أنار دربنا فكل الشكر والاحترام له

وإلى كل الأساتذة الذين سقونا من بحر المعرفة حتى وصلنا إلى هذه الدرجة العلمية

كما نتقدم بالشكر إلى اللجنة المناقشة وإلى كل أساتذة قسم اللغة والأدب العربي

وإلى كل من ساعدنا من قريب أو بعيد في إنجاز هذه المذكرة

مقدمة

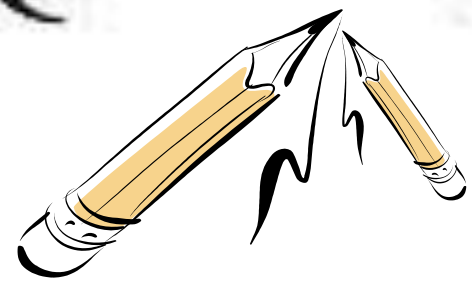

مقدمة:

في حقيقة الأمر كم هي صعبة اللحظات الأخيرة من الدراسات الجامعية التي دامت ثلاث سنوات كانت مفعمة بروح العلم والمعرفة لنا، كانت تحمل في طياتها ذكريات جميلة وأخرى سيئة في بعض الأحيان ولكن بالرغم من هذا كله فقد تجاوزنا سيئها وعشنا جميلها، وكانت أجمل ما نختم به هذه الذكريات هو العمل على ترك بصماتنا مجسدة في بحوث متواضعة يشهد القلم على خطها والتاريخ على حروفها ونظرا لما زخر به الأدب من مباحث كثيرة تستحق الاهتمام والاطلاع والدراسة، ومن بينها أدب الرحلة لكونه يسعى دائما إلى تحقيق الشمول الكلي بالتعبير عن التجربة الإنسانية منطلقة من مختلف فنونها الخاصة والعامة، فهي تعتبر مصدرًا حيا من مصادر زيادة الخبرات، فإن الكثيرين يلجؤون إليها من أجل تنمية قدراتهم الذاتية على مواجهة الحياة في مختلف الظروف.

– إن الرحلة في الأدب بناء يتشكل وفق معطيات التخييل، والذي استفاد بدوره من التراجم والسير وذلك من خلال تنوع الهويات التي تطبع نص الراحل، هذه الهويات تكون مؤثرة على الأحداث التي تدور في النص الرحلي، فهي حسب " تودوروف: " التقال في الفضاء أو عبور للذات.

ولهذا يعد أدب الرحلة رافدًا من روافد الأدب العربي على مر التاريخ إذ يجمع في ثناياه عناصر التشويق في الحكي وذلك لما احتوت عليه مادة الرحلات من عناصر الخلق والإبداع.

وبعد أن بدأنا بالبحث والتنقيب عن المصادر والمراجع توصلنا إلى أمور كثيرة حول أدب الرحلات ودوره في التعبير عن الحياة التي لم نكن نعرفها من قبل، حيث كان الهدف من البحث محاولة اكتشاف لخصوصيات الفضاء في النص الرحلي عند الحسين الورتيلاني من خلال التساؤل حول ما يلي:

– ماهية الفضاء في هذه الرحلة؟

حيث يقوم هذا البحث على خطة تنقسم إلى عناصر وهي:

مقدمة، ومدخل ثم يليهما فصلان تتبعنا فيهما المنهج الوصفي السيميائي فالمدخل يحمل عنوان أدب الرحلات بصفة عامة، أما **الفصل الأول**: تناولنا فيه المفاهيم المشكلة للبحث: تعريف الفضاء – المتخيل – الرحلة بالمفهوم اللغوي والاصطلاحي ثم تطرقنا إلى أنواع الفضاءات، ونشأة أدب الرحلة وتطوره عند العرب، كذلك أنواع الرحلات أدب الرحلة في الأدب الجزائري، وأنواعها.

أما **الفصل الثاني** فهو الفصل التطبيقي وجاء فيه: تمهيد، أولا: الفضاءات المفتوحة (تعريفها) من حيث هي عامة أو خاصة، ضيقة أو واسعة، وعلى اعتبار أن الفضاء هو عبور إلى الذات وانتقال إلى أفق أوسع وقد قسمناه إلى ثلاثة أنواع هي:

– فضاءات العادة واللقاء باعتبارها فضاءات عامة بكل أبعادها النفسية والدينية وما تحمله من مضامين.

– فضاءات جماعية (حيوية)

– فضاءات نفعية طبيعية

ثانيا: الموسوم بالفضاءات المغلقة والتي تعتبر أماكن عامة وقد قسمناه إلى ثلاثة أنواع هي:

– فضاءات العبادة وتشمل المساجد والزوايا والجوامع.

– فضاءات زيارية.

– فضاءات تعليمية.

ثم الحقنا بعد ذلك بملحق خاص بـ : سيرة ذاتية للحسين الورتيلاني وانتهى البحث بخاتمة، هي نتائج البحث عما توصلنا إليه أثناء تناولنا لموضوع "الفضاء المتخيل في الرحلة الجزائرية في رحلة الحسين بن محمد الورتيلاني" الموسومة ب:" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار".

وبالنسبة للمصادر والمراجع المعتمد عليها نذكر منها:

– الرحلة في الأدب العربي للدكتور ناصر عبد الرزاق. الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري لـ: سميرة أنساعد.

أما فيما يتعلق بالفضاء نذكر:

- رسالة الماجستير للخامسة العلاوي بعنوان العجائبية في أدب الرحلات.
- إبراهيم جنداري، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا

ومن الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث أننا وجدناه متشعبًا يحتاج إلى دراسة موسعة ودقيقة تحتاج لكثير من الوقت والجهد والتركيز. أما الخاتمة فقد عرضنا فيها أهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها من خلال بحثا.

ونتمنى التوفيق والنجاح لجميع الطلبة والزملاء إنشاء الله ونتمنى أن نكون قد وفقنا في هذا البحث ولو بالقسط والقدر القليل لأن العلم منبع من منابع الحياة. فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا.

والله ولي التوفيق.

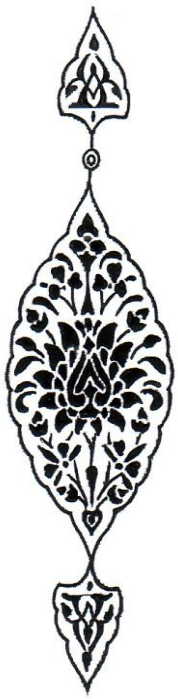

مدخل

مدخل

عرفت الرحلة في الأدب مند فجر النهضة كجنس أدبي، بعد أن كانت مجرد ممارسة في الجاهلية تجارة أو بحثا عن متطلبات الحياة.

فلم تلبث الرحلة حتى أصبحت فنا، أصيلا في النثر بسياسته التاريخية، كتب فيها أدباء الأمم، حيث امتزجت فيها التجربة الواقعية مع الخيال، بمستواها الأدبي أو التاريخي أو الجغرافي، أو الإثنوغرافي[1]، يتلاقى فيها الجانب التعليمي بالإمتاع الأدبي، حيث يقول بعض الرحالين: " ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس في مكمنه.[2]

فمن خلال هذا القول نفهم بأن الرحلة لم تعد نزهات خالصة، ولا معلومات جغرافية بحق، بل تعد ضربا من النضال المصارعة البؤس والظلم، وأنها أعطت اهتماما كبيرا للرحالين.

ولقد كتب فيها أدباء الأمم وعلماءها في التاريخ القديم والحديث تصانيف كثيرة[3]، نالت القبول من لدن القراء ومنذوقي الأدب، وذاعت بينهم لما تصوره من أحوال الرحالين وأحوال البلدان ولما تجسمه من مشاهد الطبيعة العامرة في مختلف صورها، ومن ثمة استأثر أدب الرحلات باهتمام كبير من مثقفي العالم قديما وحديثا، وعني بها أعلام بارزون، عبر أطوار الثقافة على اختلاف مناهج الرحل الآخرون، ولهذا عندما يقرأ أدب الرحلات ونعتبره من الأجناس الأدبية نجد فيه متعة وفائدة وإحاطة بالعادات وإبداع والتقاليد، كما يعرفنا هذا الجنس الأدبي بالبلدان الطبيعية لأن فيه تأمل ولأن الإنسان جبل على حب الاستطلاع

[1] الأثنوجرافيا كمصطلح كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية الأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لذى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة.

[2] أبو الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ت: سعيد محمد اللحام، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص 20.

[3] عمر بن قينة: إتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، بن عكنون، الجزائر،1995م، ص 11-13.

ومحاولة الكشف عن كل جديد والرحلات أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية لكشف المجهول والوصول إلى الغاية ومعرفة الحقيقة.

فهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة، لذا كان للرحلات قيمة تعليمية من حيث أنها أكثر المدارس تثقيف الإنسان، وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين، إن الرحلة قديمة قدم الإنسان ذاته إذ عرفها مند العصور الغابرة حتى وقتنا هذا، وإن اختلفت دواعي الرحيل، وتباينت وسائل السفر وتنوعت مادة الرحلة ذلك فإن كتابات الرحالة، أيا كانت توجهاتها ومع الفردية ونزعاتهم الشخصية، تصور إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذي عاشوا فيه، كما تصف الكثير من عناصر ثقافة البلدان التي ذهبوا إليها وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها، سواء كانت الرحلة فعلية أو من نسج قصص الخيال مثل رحلات السندباد البحري السبع التي وردت في حكايات ألف ليلة وليلة. فالرحلات بدأت ضيقة ثم اتسعت مع مرور الزمن، ولهذا نجد بأن الإنسان ولد راحلا وإن لم يستطع القيام بها كان بديلها الخيال بمعنى تخيل رحلات غير محسوبة في عالم الخيال كما هو الحال في رحلة دانتي الإيطالي في الكوميديا الإلاهية، ورحلة حي ابن يقضان لابن طفيل.

ورحلة " ابن بطوطة، التي تكتسي طابع الخيال بالدرجة الأولى التي عبر بها أوطانا وقارات، فاحتلت أهمية كبيرة باتساع رقعتها، وثانيا بمستواها الأدبي[1]" والرحلات فيما مضى كانت عملا شاقا وأسلوبا مضنيا، حيث كان الرحالة يتعرضون لحالات كثيرة كتقلب المناخ، وتبدل الأحوال إلى جانب ما يصادفونه من الخوف والضياع، وطول الطريق ومصارعة الأمواج ووحشة المحيطات.

فالرحالون عندما يلتجئون إلى الرحلة في كشف المعرفة والإمتاع في الارتحال، لابد أن " تكون لهم عينا ثاقبة ليروا كل شيء في رحلته ، وأن تكون لهم ظهر جمل ليتحملوا كل شيء، وأن يكونوا حاملون للمال والصبر العظيم لكشف مصادر المعرفة، ومن يعش كثيرا

[1] محمد حسين فهيم، أدب الرحلات عالم المعرفة، دار الفنون والثقافة والآداب، الكويت، يناير 1978م، ص 15.

يرى أكثر، وللأسف قليلون هم أولئك الذين يستفيدون من الرحلات بحيث يجسدون مشاهدتهم ويرصدون معلوماتهم، ويدونون انطباعاتهم ثم يتبعون ذلك للبحث والدراسة مما يتفق مع تخصصهم وميولهم[1]، ولهذا يقوم أدب الرحلة على عدد من المعطيات الحضارية والإيديولوجية حيث يعد هذا الحقل الأدبي نصا جامعا لمجموعة من الاختصاصات المعرفية والعلمية لما يتمتع به الرحالة من حقل موسوعي.

فالرحلة كجنس أدبي قبل أن تكون واقعا فضائيا هي اكتمال لحركة ملموسة، هذه الحركة قد تكون صورة أو فكرة أو رؤية.

وبهذا تعد الرحلة طريقة من بين طرق كثيرة للتعلم ووسيلة لإكتساب وإعمال العقل، فنجد عنصر البداية والنهاية في الرحلة حالتين شعوريتين مختلفتين فسفر الذهاب ليس هو سفر الإياب، ففي الذهاب تتسلط على الرحالة لحظات الغربة والخوف والدهشة والحنين والتحدي والمغامرة والتساؤل، وفي العودة تكون حالات التأمل والمراجعة والتفسير والاستنباط، لكن العودة قد تكون بالجسد والوجدان وقد تكون بالكتابة باسترجاع المكان بمختلف مدلولاته، لذا فالرحلة تتحقق أدبيتها بالاقتراب والابتعاد عن الأدب في آن واحد، إذ أنها لا تقتصر على فعل الارتحال ماديا بل مدى تحقيق فعل الكتابة للراحل حيث أن " الرحالة لا يغادر بلاده وذهنه صفحة بيضاء، ليبدأ بتسجيل مشاهداته مباشرة، بل يكون ذهنه مليئا بالتوقعات والانطباعات التي سمعها من الآخرين وقرأها في الكتب وكونها من الأفكار العامة السائدة في محيطه، وأدب الرحلة إذن لا يكشف خصائص الحضارات الأخرى التي ينقلها الرحالة فقط، بل يكشف أيضا عن حضارة الرحالة نفسه.[2]

ونهدف من خلال هذا: بأن كتب الرحلة تعتبر وسائل لتقييم الآخر وتعريف القراء به على التواصل والتفاعل بين الأنا أي الكاتب والعالم أي الحضارات المختلفة.[3]

---

[1] كمال بلعسل، رحلة أبي حمد الغرناطي، دراسة في قضاء الرحلة، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، تلمسان، 2011م ، ص 45.

[2] ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة، نسيج بين الواقع والخيال ل: شادي حكمت ناصر، بيروت، لبنان، حزيران 2003م، من 68.

[3] المرجع نفسه، ص93.

إن أدب الرحلة بشكل عام نوع من مذكرات الإنسان تكون عرضة لاهتمامات الشخصية بما يتوافق مع تكوين الحضارة، وبهذا يبقى أدب الرحلة رافدا من روافد الأدب على مر التاريخ، إذ يجمع في ثناياه عناصر التشويق في الحكي والجنوح إلى الغرابة، مما يجعله مجالا للتحليل الأدبي، ومع ذلك اكتسى هذا الفن الأدبي شعبية وتداولا بين القراء كما حظيت أعمال الرحالة بقدر كبير من الشهرة، وذلك لما احتوت عليه الرحلات من عناصر الخلق والإبداع، حيث ترتفع الأساليب في هذا الجنس إلى عالم الأدب، وترتقي به إلى مستوى الخيال الفني، مع الابتعاد عن الأسلوب الأكاديمي الجاف والمادة التجريدية، إذ يتنوع الأسلوب فيه بين السرد القصصي والحوار والوصف.

إذ تشكل الرحلة مادة أدبية غنية طافحة بالأحداث والوقائع والتجارب اليومية[1] فالوصف يمثل حجر الزاوية في أدب الرحلات[2]، فالرحلات ثروة عظيمة ومصادر للمعرفة، تنقل تفاصيل السفر، وتصوير الأمكنة الجديدة مع التركيز على مظاهر العجيب والغريب، ونقل الثقافة الاجتماعية للمكان المرتحل إليه، حيث يركز الرحالة على وصف العادات والتقاليد وأساليب العيش لذا ذلك الشعب، ولهذا الجنس مصدرا هاما في الدراسات المقارنة [3].

وسيظل أدب الرحلات رافدا من روافد المعرفة والثقافة الإنسانية والأدب والتاريخ، ولقد قيل:

سفر الفتى لمناطق وديار ونجول في سائر الأمصار
علم ومعرفة وفهم واسع وتجارب ورواية الأخبار

ومن هنا نستطيع أن نقول: بأن أدب الرحلة يشكل ثروة معرفية كبيرة، ومخزنا للقصص والظواهر والأفكار فضلا عن كونه مادة سردية مشوقة تحتوي على الطريف والغريب

[1] ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ص 93.

[2] المرجع نفسه، ص46.

[3] الدكتور يوسف وغليسي: في ظلال النصوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، طل، 2009، ص 279.

والمدهش، مما التقطته عيون تتجول وأنفس تنفعل بما ترى، ووعي يلم بالأشياء ويحللها ويراقب الظواهر ويتفكر بها.[1]

[1] انظر محمد بن تاويت الطنجي، رحلة ابن خلدون، دار السويدي للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003م، ص09.

الفصل الأول

دراسة في المفاهيم

أولا: مفهوم الفضاء

ثانيا: مفهوم المتخيل

ثالثا: مفهوم الرحلة

رابعا: نشأة أدب الرحلة وتطوره عند العرب

خامسا: أنواع الرحلات

سادسا: أدب الرحلة في الأدب الجزائري

أولا: مفهوم الفضاء.

1 – لغة:

نجده في لسان العرب: " فضاء الفضاء المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يفضوا فضوا، فهو فاض..... وقد فضا المكان وأفضى إذا اتسع، وأفضى فلان إلى فلان أي وصل إليه، وأوصله، أي صار في فرجته وفضائه، وحيزه، قال ثعلب بن عبيد يصف نحلا:

شتت كنة الأوبار لا القر تتقي ولا الذئب تخشى، وهي بالبلد المفضي

أي العراء الذي لا شيء فيه..... والفضاء الخالي الفارغ الواسع من الأرض، يقال: أقضيت إذا خرجت إلى الفضاء..... ومكان فاض ومفضى أي واسع" [1]

من خلال هذا التعريف اللغوي، نلاحظ بأن مصطلح الفضاء له عدة دلالات تحمل في طياتها مختلف العناصر المكونة للنص الأدبي أو الروائي، فهو المصطلح الأب الذي يضم تحت جناحيه مصطلحات متقاربة وجزئية منه، كالمكان والشخصيات الزمان وغيرها من العناصر.

2– الفضاء كمصطلح أدبي:

كون مصطلح الفضاء مساحة رحبة من في مجال الدراسات النقدية وتحليل الخطاب، فهو يعتبر من أهم المصطلحات التي اتجه الباحثون إليها، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، فجعله البعض منهم شغلا شاغلا ومبحثا أساسيا عنده، خاصة بعد إهماله من قبل، مثل: المكان، وتوجهت أنظارهم إلى عنصر الزمن على حسابهما بالرغم من تطور الوعي الأدبي.

– وقد برزت دراسات كثيرة مع نهاية الحرب العالمية الثانية، وامتدت إلى وقتنا الحاضر إلا أنها لم تحض بالتطور الذي يؤهلها لأن تكون نظرية يؤخذ بها في الأدب عامة وفي الرواية خاصة، يقول في هذا الشأن حميد لحميداني:" لم تتطور بعد لتؤلف نظرية متكاملة عن الفضاء المكاني[2].

---

[1] ابن منظور: لسان العرب مادة (ف ض أ)، ضبط نصه وعلق حواشيه خالد رشيد قاضي، دار صبح وإديسوفت، بيروت، لبنان، ج10، ط1، 2006، ص269.

[2] حميد لحميداني: بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ط1، 1991، ص 53.

فبقيت هذه الدراسات مجرد محاولات واجتهادات مشتتة اختلفت من رأي إلى آخر سواء من حيث المعرفة التطبيقية أو النظرية، ويتجلى ذلك بخاصة عند انتقال مصطلح الفضاء بين العديد من الباحثين إلى الساحة النقدية العربية الجديدة. ومن منظور آخر نجد تعريفه قد تغير بدرجة كبيرة عن السابق فهو " الحيز الذي يضم الأشياء والأحداث.[1]

ويتصف ارتباطه باللغة لفظا جامعا لكل القيم الحسية، الجمالية و الفلسفية .

3- مصطلح الفضاء اصطلاحا:

إذا كانت لفظة " espace قد ترجمت تارة بالفضاء، وتارة أخرى بالمكان ومن ذلك جاء استعمال المصطلح النقدي الشائع في النقد العربي المعاصر المكان.

هذا الأخير الذي عده عبد المالك مرتاض " ترجمة غير سليمة ولا دقيقة التمثيل بالمعنى الأصلي الأجنبي"[2]، فإن استعمال لفظة الفضاء تعتبر اللفظة الأكثر شيوعا في الكتابات النقدية العربية المعاصرة، ويعد هذا المفهوم السيميائي النقدي جديدا في الكتابات العربية التي كتبت منذ ثلاثين عاما، حيث جاء استعمالا في الترجمة.

وقد اختلف الدارسون في معالجتهم للفضاء، لاختلافهم في تحليل ودراسة الزمان، وإذا كانت الدراسات اللسانية قد حققت لتطور دراسة زمان الحكي، فإن الفضاء ظل مجالا مفتوحا للاجتهاد والتصورات المتعددة، التي لم تصل إلى حد بلورة نظرية عامة للفضاء، بل ظلت وجهات نظر الباحثين تتأسس وفق قاعدة ما تقدمه أعمال محددة، ولم يصل الأمر إلى إقامة تصورات لها حد من الشمولية والعمومية رغم محاولات " يوري لوتمان " الهامة التي نوه بها كل المشتغلين بالفضاء".[3]

فهذا " فسيبر جر fseber djer" يرى أنه من الصعوبة بمكان تحليل الفضاء، ذلك أننا حسب ما يقول" لا نعرف كيف يعمل المحيط الفضائي حيث يجري السرد وهو نفس ما ذهب إليه مثيران.

---

[1] ابراهيم جنداري: القضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1، 2001، ص 12.

[2] مرتاض عبد المالك: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 240، ديسمبر 1998م، ص 942.

[3] المرجع نفسه، ص 142.

وإذا كان فسيبر جر، يرى أن الفضاء في العمل الحكائي ليس سوى مجموع العلاقات القائمة بين الديكور والوسط، والأماكن وأفعال الفواعل، مستندا على الطابع اللساني الذي يقدم به الفضاء في الأعمال الحكائية، فإنه يختلف عن الأعمال ذات البعد البصري المتحققة من خلال السينما والمسرح.

فالفضاء (الحيز) بتعبير عبد المالك مرتاض عالم" دون حدود، وبحر دون ساحل وليل دون صباح ونهار دون مساء، إنه امتداد مستمر مفتوح على جميع المتجهات في كل الأفاق[1].

وإذا كان جيرار جينت يذهب إلى أن العمارة هي الفن الذي يتعامل بامتياز مع الفضاء، وهو على حد قول عبد ال مالك مرتاض مصيب إلى حد ما، ولكن " الحق أيضا أننا نتمثل الأدب على أنّه الأصل في التخيل، وعلى أنه أكبر من بناء العمارات الشاهقة والقصور الممردة، والمدن الضخمة دون أن يستحيل عليه ذلك، فهو أقدر على التعامل مع الحيز (الفضاء، لأنه أقدر الفنون والعلوم على تمثله أولا، ثم تصويره من وحي الخيال وعبر الخيال وبالخيال على الآخر[2]"، ولم يكتف بهذا، بل راح يؤكد أن الفضاء هو الذي يجسد عبقرية الأدب[3]، ذلك أن الذي يبقى من آثار قراءاتنا لأي عمل أدبي أمرين هما:

أولهما: "الحيز وآخرهما الشخصية التي تضطرب في هذا الفضاء بكل ما يتولد عن ذلك من اللغة التي تنسج والحدث الذي ينجز والحوار الذي تشير والزمن الذي فيه تعيش[4] وعليه يمكن القول أن الشخصيات ترتبط بالفضاء ارتباطا وثيقا، ذلك أن كل فعل يقوم به فاعل في زمان ويقع في مكان.

فالمقولات الثلاثة (الفعل الفاعل الزمان) لا يمكنها أن تتحرك إلا في المكان، فإن ارتباط الشخصية بالمكان لا يقل عن ارتباط الزمان بالمكان.

---

[1] مرتاض عبد المالك: في نظرية الرواية، ص 157.

[2] المرجع نفسه، ص156.

[3] المرجع نفسه، ص 160.

[4] المرجع نفسه، ص 155.

ونحن إذ نعرض للأعمال الحكائية العربية نجد أنها أثبتت جدارة كبيرة في تعاملها مع الفضاءات والشخصيات السابحة في هذه الفضاءات التي اختلفت من مرجعية إلى تخييلية إلى عجائبية.

4- أنواع الفضاءات:

- ميز سعيد يقطين بين بنيات فضائية خاصة وأخرى عامة، أما البنيات الفضائية العامة فيمكن أن تميز فيها ثلاثة أقسام من الفضاءات:

أ- الفضاءات المرجعية:

ويقصد بها مجمل الفضاءات التي يمكننا العثور على موقع لها إما في الواقع أو في أحد المصنفات الجغرافية أو التاريخية القديمة، وقد كثر ذكر هذه الفضاءات التي لا يمكن أن تتحدد إلا من خلال لاسم، هذا الأخير كما يفعل الجغرافي والرحالة، وإلى جانب الاسم هناك أيضا صفات تتميز بها هذه الفضاءات عن بعضها البعض، وعليه فما يمكن أن يحدد هوية الفضاءات هو الاسم والصفة، وقد تنسب إلى أسماء الآدميين، كجزيرة النساء أو أسماء الحيوانات كجزيرة الأفاعي وما أكثر هذه الفضاءات في كتب الجغرافيا والرحلات وكذا في كتب العجائب.

ب- الفضاءات التخييلية:

وهي الفضاءات التي يصعب الذهاب إلى تأكيد مرجعية محددة لها سواء من حيث الاسم الذي تتميز به أو الصفة التي ت بعث بها، وقد تكون أقرب إلى الفضاءات المرجعية غير أنها غير قابلة لأن تتحدد مرجعيا، وقد يلجأ الراوي إلى اختلافها لضرورة حكائية معينة ومن الأمثلة التي يمكن ضربها في هذا المجال.

جبل قاف " الذي وصفه المفسرون بأنه جبل محيط بالدنيا وهو من زبر جدة خضراء منه خضرة السماوات ووراءه عالم وخلائق لا يعلمهم إلا الله تعالى [1].

[1] القزويني، زكريا محمد، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، د ت، ص185.

ج- الفضاءات العجائبية:

تختلف طبيعة تركيب هذه الفضاءات المرجعية أو الواقعية الأليفة، ونحن إذ نقسم الفضاء بالعجائبي فإن ذلك يعني خروجه عن المألوف و اعتياده على التصنيف في المفهوم التقليدي للجغرافيا، علما أن عجائبية الفضاءات إنما تتحدد من زاوية الرؤية التي نتخذها لمعاينتها[1]، وما أكثر هذه الفضاءات الموسومة بالعجائبية في كتب الرحلات العربية كمدينة "النحاس" التي يقول فيها القزويني:

"ولها قصة عجيبة مخالفة للعادة جدا ولكنني رأيت جماعة كتبوها في. معدودة كتبتها أيضا ومع ذلك فإنها مشهورة الذكر[2]، وهذا اعتراف منه بأنها " نالت اهتمام علماء لم يكن من المتصور أن يغيب عن أذهانهم الطابع الجغرافي الذي يسودها[3] وهكذا فإن هذه المدينة الأسطورية التي يزعم رواتها أن موسى بن نصير قد سار إلى الأندلس للتعرف عليها قبل فتح الأندلس حيث يمكن عد هذه المدينة من المدن الفاضلة، إذ لا يوجد لهذه المدينة بالأوصاف التي رسمها بها الرحالة حول الأحداث لمحاكاة حول هذه المدينة.

"حيث نجد الأدب السردي القديم بأنه يتعامل مع الجير بامتياز ووعي[4]. حيث يحاول عبد الم لك مرتاض أن يجسد عبقرية الأحياز أو الأماكن من خلال كتاب (ألف ليلة وليلة) الأن حكاياتها لم تبرنا بلاغتها ولا بأسلوبها، ولا بوصفها، بل بشخصياتها المتحركة في فضاءات عجائبية أنشأها الخيال الشعبي العبقري، حيث يؤكد أن عبقرية الأدب إنما تكمن في فضاءه (حيزه)، ولعل ذلك يجسده ميشال بيطور (ابن بطوطة الغرب) في كتابه عبقرية المكان"[5].

---

[1] علاوي الخامسة: العجائبية في أدب الرحلات، ابن فضلان، رسالة لنيل الماجستير أدب عربي، قسنطينة، 2005م، ص 129.

[2] القزويني: أخبار البلاد وأخبار العباد، ص 558.

[3] العربي إسماعيل، هامش تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص52.

[4] الحموي ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995، م1، ص 155.

[5] مرتاض عبد الملك: في نظرية الرواية، ص 160 161.

فهذا الفضاء يأتي في نهاية العالم، وهو متصل بعالم آخر تسكنه عوالم أخرى (لا من الإنس ولا من الجن) ويبدو البعد التخييلي جليا في طريقة تشكيله، وتحديد موقعه إذ نجده مخالفا لمختلف الفضاءات المرجعية أو العجائبية وإن كان يتداخل معها[1].

وقد قسم سعيد يقطين الفضاء التخييلي إلى :

1- الفضاء الوردي.

2- الفضاء القفري (النار، الموت)

3- فضاء المعارك.

4- الفضاء المتخيل بكل أشكاله فضاء العالم الآخر / فضاء الحلم أو الرؤيا".[2]

والحقيقة أن المجال لا يسع للخوض في كل هذه الأنواع بالتفصيل وإن كان التلميح إليها قد يكون من حين لآخر.

ثانيا: مفهوم المتخيل.

إن عكس ما تقره الفلسفات العلموية والتيارات الوضعية، فإن المتخيل يخترق كل المجالات، ولذلك فبدل تهميشه وإقصائه فمن الأحسن إعادة اكتشاف حقيقته، وقد عرفه" إيفيلين بتلجيون" evelyne patalgean" بأن " مجال المتخيل يتكون من جملة التمثيلات التي تتجاوز الحدود المرسومة لشروط التجربة والتسلسل الإستنتاجي الذي تستوجبه".[3]

بمعنى أن المتخيل هو ما يقع خارج الواقع الحسي، وهو كل ما ليس حقيقة تدرك إما مباشرة، وإما عن طريق الاستنتاج المنطقي، أو عن طريق التجربة العلمية.

وحسب جون جاك وينبورغر، " تعني كلمة مخيلة في اللغة الفرنسية الإنتاج الذهني للتمثيلات المحسوسة التي تختلف عن الإدراك الحسي للحقائق المتعينة من جهة، وعن مفهوم الأفكار المجردة من جهة أخرى."[4]

---

[1] انظر، يقطين سعيد: قال الراوي: المركز الثقافي العربي، طلا، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ص247.

[2] المرجع نفسه، ص 248 ص 252.

[3] جيل دولوز وفليكس قطري: ماهي الفلسفة، دار النشر والتوزيع، 1991م، ص12.

[4] جون جاك ونيبورغ: التخيل، باريس، 1991م، ص 03.

أما في اللغة العربية، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور:" تخيلية: ظنه وتفرسه، وخيل عليه شبه، وأخال الشيء، اشتبه هذا الأمر، لا يخيل على أحد أي لا يشكل، وفلان يمضي على المخيل، أي على ما خيلت أي ما شبهت المخيلة: موضع الخيل وهو الظن كالمظنة وهي السحابة الخليقة بالمطر."[1]

وعليه فإن الجدر اللغوي للمتخيل هو " خيل" أي الاشتباه والظن وهي قريبة من الكلمة الفرنسية " imaginaire المشتقة من الأصل اللاتيني " Timaginarus والتي تعني خيالي، أو خاطئ، وتستعمل كلمة متخيل في اللغة العربية بثلاث دلالات على الأقل:

1- كصفة، وتعني مالا يوجد إلا في المخيلة، الذي ليس له حقيقة واقعية.

2- كاسم مفعول، للدلالة على ما تم تخيله.

3- كاسم، وتعني الشيء الذي تنتجه المخيلة، كما تعني ميدان الخيال [2].

ويذهب "محمد عابد الجابري إلى أن كلمة " imaginaire من الكلمات التي لا نجد لها مقابلا مألوف الاستعمال في اللغة العربية، والكلمة مشتقة من "image" بمعنى صورة، صورة الشيء في المرآة أو في النفس، أي في الخيال، ومن هنا ترجمة الفلاسفة العرب القدماء للاسم الذي يطلق على الملكة الذهنية التي ترتسم فيها صور الأشياء الحسية والمتخيلة بلفظ المصورة تارة والمخيلة تارة أخرى[3]"

ومن هنا نصل إلى أن المتخيل هو جملة الصور الغير واقعية التي ترتسم في أنماط النفس، ويتمايز المتخيل بتمايز الصور المكونة له، مما يسرع الحديث عن للمتخيل.

[1] ابن منظور: لسان العرب مادة خيل المجلد السادس ك – ل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ص387-388.

[2] مصطفى كيحل: مداخلة، الفلسفة والمتخيل، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة عنابة، ص 02.

[3] محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي، معددات، وتجلياته مركز دراسات الوحدة العربي، ط2، ص 10.

ثالثا: مفهوم الرحلة.

1- الرحلة في اللغة:

جاء في معجم لسان العرب لابن منظور مادة " رحل"، رحل الرحل مركب للبعير والناقة وجمعه أرحل و رحال والرحالة نحوه، كل ذلك من مراكب النساء، وأنكر الأزهري ذلك، قال الرحل في كلام العرب على وجوه، فقد صح أن الرحل والرحالة من مراكب الرجال دون النساء والرحل في غير هذا منزل الرجل ومسكنه وبيته، ويقال:" دخلت على الرجل رحله أي منزله، والرحل مسكن الرجل وما يصحبه من الأثاث".[1]

والرحول والرحولة من الإبل التي تصلح أن ترحل، وهي الراحلة تكون للذكر والأنثى، فاعلة بمعنى مفعولة، وقد يكون على النسب، وأرحلها صاحبها، راضها حتى صارت راحلة، قال أبو زيد أرحل الرجل البعير، وهو رجل مرحل، وإذا أخذ بعيرا صعبا فجعله راحلة."[2]

والمرحل: ضرب من برود ،اليمن، سمي مرحلا لأن عليه تصاوير رحل وما ضاهاه، قال الفرزدق:

عليهن راحولات كل قطيفة من الخز، أو من قيصران علامها، قال الراحولات الرحل الموشي على فاعولات، وناقة رحيلة ورحلة شديدة قوية على السير، وكذلك جمل رحيل، وبعير ذو رحلة أي قوة على السير:

والترحل والارتحال: الانتقال وهو الرحلة والرحلة: اسم ل لارتحال للمسير ورحل البعير رحلا، فهو مرحول ورحيل، وارتحله جعل عليه الرحل ارتحلت البعير رحلا، فهو مرحول ورحيل، وارتحله جعل عليه الرحل ارتحلت البعير إذا ركبته.... يقال رحل الرجل إذا سار، وقوم رحل أي يرتحلون كثيرا، والترحل والارتحال، الانتقال وهو الرحلة.

والرحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده ، والمرحلة، المنزلة يرتحل منها، وما بين المنزلتين رحلة.

---

[1] ابن منظور المصري، لسان العرب مادة رحل، دار صاد و دار بيروت، لبنان، د ت، ط01، 2006، ص-165.164. 163

[2] – المصدر نفسه، ص ن .

فمن خلال تعريف مادة "رحل نجد أن لفظ الرحلة تطور دلاليا عند استخدام العرب له، إذ خص في البداية البعير المسماة بالرواحل التي كانت تسير للإنسان السفر والتنقل، فقبل رجل رحال ورحول أي مكثر للارتحال، كما تطلق هذه اللفظة أيضا على الأقوام الذين تعودوا على الرحلة، ولهذا سموا قوما رحل.

– كما جاء في معجم الوسيط لإبراهيم مصطفى، في مادة (رحل): "رحل عن المكان، رحلا، ورحيلا، وترحالا الرحال العرب الرحل: الذين لا يستقرون في مكان ويحلون بماشيتهم، حيث يسقط الغيث، وينبت المرعى، الرحالة: الكثير الرحلة (الرحل): العرب الرحل – الرحال"[1].

(الرحلة الارتحال) ج (رحل) في التنزيل نقرأ قوله تعالى: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[2].

– الرحلة: كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى (الرحلة): ما يرتحل إليه، يقال الكعبة رحلة المسلمين، وأنتم رحلي (الرحول): كثير الارتحال.

– ورغم تعدد مشتقات مادة " رحل إلا أنها تشترك في معنى عام واحد، وهو الحركة، التي ارتبطت بالإنسان قبل وجوده على وجه الأرض وبعده، وهي دليل حياته، مثلما يكون السكون دليل موته.

كما جاء في (القاموس المحيط) ارتحل البعير سارو مضى والقوم عن: المكان انتقلوا، لترحلوا، والاسم الرحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال، وبالضم الوجه الذي تقصده...

تجمع الرحلة على "رحلات (بكسر الراء وتسكين الحاء)، وقد تجوز كذلك الرحلات (بكسر الراء وفتح الحاء) و " الرحلات" (بكسر الراء والحاء معا) وهما استعمالان مهملان قسناهما على قاعدة جمع ا لاسم الثلاثي المزيد بناء التأنيث، حين يكون مكسور الفاء (الراء في رحلة)، حيث يجوز في عينه الصحيحة (الحاء) الإتباع والإسكان والفتح".[3]

---

[1] إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، ج1، دار الدعوة، 1989، ص 334 – 335.

[2] سورة قريش، الآية02.

[3] صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، نشأة المعارف، الإسكندرية، 1982م، ص 71.

2- الرحلة في الاصطلاح:

لا يستبعد كثيرا مفهوم الرحلة اصطلاحا عن مفهومها لغة، إذ يشتركان في الصفة اللازمة بفعل الارتحال، وهي الحركة، غير أننا نلمس من خلال عرض أقوال بعض الأعلام الإشارة إلى الفوائد التي يجنيها الإنسان من وراء الرحلة مثلما نجده في قول الرحالة أبي الحسن على المسعودي (ت 345هـ) " ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من مكمنه.[1]

فنلاحظ من خلال هذا القول بأن الإيمان القوي للرحالين يلتزم بضرورة كسب العلم والمعرفة من جدورها الأصلية، لأجل الوصول إلى الحقيقة، وعدم الاكتفاء بالقراءة والسمع، بل لابد من المراجعة والتدقيق.

- كما ورد في معجم المصطلحات الأدبية أن أدب الرحلة هو: مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد".[2]

ويرى الرحالة الكبير عبد الرحمان ابن خلدون (ت 828هـ) في أهمية الرحلات على إطراء معارف المتعلم وتنميتها، حيث يقول " الرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال".[3]

ونفهم من خلال هذا القول أن الرحلة باتت عنصرا مهما في طلب العلم والمواجهة في مناقشة كبار أهل المعرفة.

---

[1] الفيروز أبادي، القاموس المحيط الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978م، ص 18.

[2] الدكتور ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، دار النشر للجامعات المصرية، الطبعة1، 1995، ص 38.

[3] محمد بن عثمان المكناسي: الإكسير في فكاك الأسير، محمد الفاسي المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، د ت، ص، ح المقدمة.

وبالمفهوم الأشمل والأوسع للرحلة كجنس أدبي:

تعتبر فن من الفنون الأدبية التي عرفت ازدهارا في أدبنا العربي مند القرون الأولى، ونالت اهتماما كبيرا من قبل الباحثين والنقاد في محاولات لتحديد مفهوم الرحلة، وصولا إلى العناصر والأسس التمييزية لهذا الفن عن غيره من الفنون الأدبية.

كما اشترط " الدكتور أنجيل بطرس" من خلال تحديد مفهوم أدب الرحلات أن يتحقق في وصف الرحالة، وتسجيله لمشاهداته وانطباعاته مع الدقة والصدق وجمال الأسلوب[1]، كما نلاحظ بأن هناك صفتان لابد أن تتوفر في أدب الرحلات هما:

-1- أن يكون من يكبت عن الرحلات رحالا بطبعه ومحبا للرحلات.

-2- أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة والرغبة الشديدة التي تتملكه للقيام بها[2].

ولعلّ خير أمثلة أدب الرحلات هو ما يكشف عن شخصية الرحال، بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التي ينتقل بينها، والناس الذين يلتقي بهم، فإذا كان الوسط الذهني هذا، ففي طرفيه توجد الأمثلة التي تقع فيها شخصية الرحال في مركز الانتباه، وفي الطرف الآخر تقع الرحلة الجافة التي لا تحمل أثر الشخصية صاحبها، بعد أن تصبح مجموعة من الحقائق العارية من السمة الإنسانية التي تميز العمل الأدبي، ولعل الأسلوب الذي يتميز به أدب الرحلة هو أسلوب الوصف، الذي تكمن قيمته في تصويره لنا.

3- تأثر الكاتب بعالم جديد، لم يعرفه من خلال امتزاجه بين الواقع والخيال، وبالتالي فالرحلة ليست سوى تجربة إنسانية حية ومغامرة ممتعة يمارسها الإنسان ليصل إلى أصدق ملاحظة وأعمق تأملات وأغنى ثقافة، كما يذكر الرحالة أهم الإحساسات التي يشعرون بها أمام المناظر التي يمر بها وفي هذا يعبر الراحل عن نفسه وعن عواطفه وعن وجهة نظره الخاصة في كل مسألة، ويمتاز فن الرحلة على العموم بالنثر، لأن الرحلة عندما تكتب في

[1] الدكتور ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، ص 38.

[2] سميرة أمساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2009، ص 30 – 32.

شكل أدبي نثري متميز، وفي لغة خاصة، تصور بناء افريا له ملامحه وسياته، كما يمتاز أيضا بتشكيل لنص ذاتي شخصي بخصوص الأنا والآخر، يتبين في شكل معين للتعبير عن رؤية معينة انطلاقا من خطاب مفصح عنه أو مضمر في تضاعيف السرد والوصف والتعليقات وهكذا يمكن القول بأن طرفي هذا النوع من الأدب هما:

"الموضوع أو الرحلة ذاتها من ناحية، وشخصية الرحال من ناحية أخرى ولعل خير أمثلة أدب الرحلات هو ما يكشف عن شخصية الرحال بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التي ينتقل بينها" [1].

رابعا: نشأة أدب الرحلة وتطوره عند العرب.

أسهم العرب والمسلمون خلال رحلاتهم المتعددة في فتح بلدان كثيرة من مختلف الجهات، فتوحدت بذلك الأمم عن طريق الإيمان بالدين واتصلت فيما بينها، حيث كان هذا العامل بارزا في كثرة الرحلات عند العرب وتنوعها بتنوع الأسباب والدواعي، والطرق والإتجاهات.

فكان القرن الثالث الهجري بداية لتأليف رحلاتهم، وأخذت لونا جغرافيا وتاريخيا[2]، وقد تميز العرب بهذه المؤلفات عن غيرهم من الأقوام، حيث ألف في مجال الرحلات جماعة من المعاصرين ومن كتاب القرن الرابع الهجري، كأحمد بن جعفر اليعقوبي (ت 284هـ) مؤلف كتاب " البلدان"، والمسعودي، صاحب كتاب " مروج الذهب ومعادن الجوهر".

ويدخل في صنف الرحلات الجغرافية عدد كبير من المؤلفات، شارك فيها مشارقة ومغاربة وأندلسيون، في فترات زمنية متباينة، ومن هنا نذكر رحلتين جغرافيتين هما:

نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" لأبي عبد الله محمد الإدريسي (ت 562هـ) يعد أكبر جغرافي في بلاد المغرب والأندلس[3].

---

[1] ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، ص 54.

[2] سمير أم ساعد، الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري، ص 40.

[3] شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، د ت ، ص 19.

ورحلة " تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب" لأبي حامد الأندلسي (ت564 هـ).

– وقد عرفت الرحلة العربية في أواخر القرن السادس الهجري تحولا في اتجاه الكتابة بجغرافية البلدان وآثارها الحضارية واعتناء بسرد يوميات الرحالة وذكر الكثير من خصوصية مشاعره، أفكاره، وانتقاداته، مع تحول في الطابع الأسلوبي للكتابة كذلك، إذ أصبح أسلوبا سرديا وقصصيا، يتسم بالبساطة والسلاسة، وبهذا انتقلت الرحلة من الطابع الأدبي الذي مثله أحسن تمثيل محمد بن جبير (ت 614هـ) برحلته المعنونة "تذكار الأخبار عن اتفاقات الأسفار" التي وصفها الدكتور حسني محمود حسين بقوله إن هذه الرحلة تحوي بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مؤرخ أو جغرافي، أو أديب يريد أن يدرس هذه الفترة المهمة من حياة الشرق الإسلامي، وقد رفع بها صاحبها هذا الضرب من الصياغة الأدبية إلى درجة عالية"[1].

كما أفادت رحلة ابن جبير في موضوعها وصياغتها، الكثير من المؤلفين المغاربة والأندلسيين، ممن جاءوا بعد الرحالة من بينهم علي بن سعيد الأندلسي (ت 685هـ) صاحب كتاب المشرق في حلى المشرق" ومحمد العبدري (ت 688 هـ) صاحب الرحلة المغربية، وقد فاق ابن جبير شهرة ، واتساعا في رقعة الرحلة بكتابة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" حتى أصبح أشهر الرحالين شرقا وغربا.

إضافة إلى هؤلاء نذكر رحالة القطر المغاربي عبد الرحمان ابن خلدون (ت 808هـ) صاحب التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا.

– ويلاحظ لم تتبع لمسار التأليف في الرحلات العربية "إضافة إلى تحول منهج الكتابة وأسلوبه انتقال التأليف ابتداء من القرن السادس الهجري، من المشارقة إلى المغاربة الذين عرفوا بعد خوضهم في مجال التأليف، بتفوقهم في أدب الرحلات[2]، وتركيزهم في مؤلفاتهم على تسجيل أخبار الأدباء والعلماء، في كل قطر زاروه وقد عرفت الرحلة في الوطن العربي

[1] حسني محمود وحسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1983، ص 32.

[2] عبد الهادي التازي، أدب الرحلات هل سيختفي من الساحة؟ " "مقال"، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ندوة الرحلات، دار الملك عبد العزيز الرياض ،24، 25 رجب، 1421، ج1، ص14.

تراجعا ملحوظا خلال القرنين 9 و 10 الهجريين (15- 16م)، لشدة وطأة الحروب، وتزايد هجمات الأوروبيين على السواحل المغربية على الخصوص، لكن الرحلة رجعت إلى نشاطها المعهود ابتداءا من القرن الحادي عشر هجري، ونذكر من بين الذين عرفوا في فن الرحلة بعد ابن خلدون الحسن بن محمد الوزان المعروف ب : ليون الإفريقي (ت 957 هـ - 1550م) مؤلف رحلة وصف إفريقيا"، وأبو سالم العياشي (1090 هـ)

صاحب الرحلة الضخمة " ماء الموائد"[1]، ومحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني (1096هـ - 1684م) مؤلف رحلة " المعارج المرقية في الرحلة المشرقية[2] وأحمد بن ناصر الدرعي (ت 1128هـ) صاحب " الرحلة الناصرية الكبرى" ومع حلول العصر الحديث، تغير اتجاه الرحلات من المشرق والمغرب، إلى أروبا، سببه التطور الحاصل بدول الغرب خاصة بعد الثورة الصناعية، حيث لم يعد المهتمون بطلب العلم يشدُّون الرحال إلى مصر الحجاز، العراق، والشام، بل أصبحوا يتوجهون نحو إنجلترا وإيطاليا وأمريكا وغيرها من الدول الغربية.

- إن الهدف من كتب الرحلات إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكل عن طريق الرحلة والأفكار التي تسربت عبر سطور الرحالة، والانتباهات التي ميزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار، فضلا عن كونه مادة سردية مشوقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش، مما التقطته عيون تتجول وأنفس تنفعل بما ترى.

- وهذه الرحلات التي قام بها العربي هي رحلات ثرية تكشف عن همة العربي في ارتياد الآفاق، واستعداده للمغامرة من باب نيل المعرفة متبعة بالمتعة.

وبالتالي "تؤدي إلى معرفة الآخر وعالمه والبحث عن مكونات الذات الحضارية من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والعلماء والحجاج وغيرهم من الرحالة."[3]

---

[1] انظر. ناصر بن علي الحارثي، الدراسة المقارنة الطائف في رحلتي العياشي والموسوي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين " مقال"، ندوة الرحلات، دار الملك عبد العزيز، ص 137- 151.

[2] انظر. مصطفى عبد الله الغاشي، دراسة الرحلة صورة الشرق من خلال " المعارج المرقبة في الرحلة المشرقية للرافعي التطواني، "مقال"، دار الملك عبد العزيز، "الرياض"، ع 1، السنة الخامسة والعشرون 1420 هـ - 1999م ، ص ص 181 - 200.

[3] محمد علي باشا، الرحلة الشامية إرتياد الآفاق، الإسكندرية، د ط، 1910، ص09.

فالرحلة كانت لها دواعي مختلفة في تدوينها، وتتدرج في مجال العلم والأدب وحركة التأليف فيهما.

ونجمل أسباب شروع الرحالة في سرد أحداث رحلاتهم ووصف وتصوير مشاهداتهم من نقطة الانطلاق إلى عودتهم إلى بلدهم في النقاط التالية:

– تلبية طلب الحكام والأصدقاء والأقرباء بتدوين الرحلة واطلاعهم على ما أثار إعجابهم وحزنهم مما دفعه اهتمامه للمعاينة وهذا لا يتحقق إلا من خلال التزام الكاتب المنهج الدقيق في التصوير والنسج اللائق في السرد.

– إفادة القراء بتقديم معلومات عن العلوم والمعارف والتعريف بالأعلام وبمؤلفاتهم، ضف إلى ذلك تعيين مناسك الحج والعمرة وهذه الدوافع نجدها أكثر ارتباطا بالرحلات العلمية والحجازية.

– التعريف بالبلدان، ووصف الطرق والمسالك ومواطن الحياة، وتبيين مواقع الخطر والمشقة، حتى لا يقع فيها الآخرون من منجزي الرحلات.

– التاريخ للأحداث المتنوعة، وتقديم معلومات موجزة، أو مفصلة عن الأحوال السياسية، الاقتصادية والاجتماعية للبلدان المقصودة الزيارة.

– دعوة الرحالة مواطنيه إلى تغيير أحوالهم، ويقترن هذا الدافع مع الرحلات الحديثة، التي عايشت أحداث الاحتلال والقهر والجمود الفكري.

– ذكر أخبار الأمم الأقوام والجماعات البشرية، ماضيا وحاضرا، وعرض المحاسن والمساوئ عاداتها وتقاليدها وقيمها وطقوسها الدينية، وطرق عيشها".[1]

لقد اكتست الرحلات أهمية كبيرة في رصد الحياة الاجتماعية والثقافية للشعوب وتصوير حضارتهم، ولهذا كان للرحلات قيمة تعليمية وأدبية، من حيث أنها تثقف الإنسان وتثري فكره وتأملاته، إلى جانب الأهمية الجغرافية والتاريخية، التي تتجلى من خلال مصنفات الرحالين لتنضم إلى التراث العربي الجغرافي، والتاريخي، بما ساهمت به من مادة

[1] سمير أم ساعد، الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري، ص 30– 34.

غزيرة وقيمة، كانت نتاج نظر ومعاينة و استقصاء وقراءة من قبل العلماء الرحالين أمثال عبد الله محمد المقدسي ومحمد الإدريسي (562هـ)، وأبي الحسن المسعودي، ويفصح المقدسي عن المنهج الذي اعتمده في رحلاته، لتقديم مادة علمية دقيقة بقوله أعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب وإن كانت مختلفة غير أن أكثرها، بل كلها سماع لهم، ونحن فلم يبق إقليم إلا وقد دخلناه وأقل بسبب إلا وقد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث و والسؤال والنظر في الغيب".[1]

ومن هذا القول نلاحظ أن الغرض من قيام الرحالين بالرحلات كانت مجرد إشباع الرغبات الآخرين، وباعتبار الرحلة كفنا أدبي حفظت لنا جانبا عظيما من الأدب لاكتساب المعرفة والمهارة في مجال التأليف والتنويع الأسلوبي وفي مجال التعبير الأدبي، كذلك تنويع الثقافة الشخصية وعدم التركيز على اختصاص واحد.

خامسا: أنواع الرحلات.

عرفت الرحلات أنواع كثيرة، وقد حاول الدارسون تصنيفها، وحصرها في أنواع عامة، لكنهم اختلفوا في تصنيفاتهم لها: قعين صلاح الدين الشامي ستة أنواع للرحلة، ثلاثة منها ظهرت قبل الإسلام وهي رحلة الحج، رحلة الحرب، ورحلة السفارة، والثلاثة الأخرى ظهرت بمجيء الإسلام وهي:

"رحلة الحج رحلة طلب العلم، ورحلة التجوال والطواف."[2]

"وأضاف محمد الفاسي على الأنواع المذكورة، أنواعا أخرى، ورأى أن عددها خمسة عشر نوعا هي الرحلات الحجازية السياحية الرسمية، الدراسية الأثرية الاستكشافية الزيارة السفارية العلمية المقامية، البلدانية الخيالية الفهرسية والعامة."[3]

---

[1] محمد بن أحمد المقدسي: من أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مختارات غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980، ص84.

[2] صلاح الدين الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية 1982م، ص71-92.

[3] محمد بن عثمان المكناسي: الإكسير في فكاك الأسير، تح محمد القاسي المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، د ت، ص ، ص ح: ز (المقدمة).

ويبدوا التشابك واضحا على هذه الأنواع، كالحاصل بين الرحلات الرسمية السياسية والسفارية، وكذلك التداخل بين الرحلات الدراسية العلمية والفهرسية ويمكن التركيز على أكثر الأنواع شيوعا كالرحلات العلمية، الدينية الاقتصادية والرسمية.

1- الرحلات العلمية:

وهي من أشهر أنواع الرحلات والأكثر انتشارا، ويختلف هذا النوع باختلاف أغراضه ومقاصده، فهناك الرحلات الاستكشافية والرحلات الدراسية ورحلات لقاء العلماء والأخذ عنهم، ورحلات البحث والقراءة، حيث جاء في كتاب الرحلات للشيخ محمد الخضر حسين (ت (1958م الذي جاب أقطار المشرق العربي، للقاء العلماء والتعلم على أيديهم إن الإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقي إلا نبه عليها، وندب إلى العمل بها، وهذا شأنه في الرحلة، فقد دعا إليها راميا إلى أغراض سامية منها: طلب العلم ..... ويلحق بالفقه في الدين كل علم يعد في وسائل الرسوخ في علوم الدين كالنحو والبلاغة، ومن هذه الأغراض لاعتبار بأحوال الأمم الماضية، وأحوال الأمم الحاضرة والتخلص من دار البغي والضلال إلى الإقامة في دار عدل وهداية".[1]

ومن هنا نلاحظ أن الإسلام حث على هذا النوع من الرحلات، إذ قال الله تعالى حول هذا المضمون: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » سورة التوبة الآية 122.

وقد كانت الرحلة في القديم رمزا للعالم والمتعلم، فيبدأ الطالب حياته العلمية بالأخذ عن شيوخ وطنه، أو مدينته، وظلت الرحلة على الأهمية ذاتها مع توسع الآفاق، إذ أصبحت تعتمد من قبل المؤسسات العمومية، بمختلف أطوارها وتخصصاتها، كوسيلة من الوسائل الناجحة في تثقيف الفرد وتكوينه، وتنمية شخصيته.

ويدخل في إطار الرحلة العلمية، ما كان دافع الرحلة فيها، حضور الندوات والملتقيات العلمية والأدبية، ومختلف المناسبات الرسمية المفرحة والحزينة والمشاركة فيها، ويختص

[1] سميرة أمساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص24.

العصر الحديث بهذا النوع من الرحلات، كما ساعدت الرحلة على اكتشاف مواطن الناس على هذه الأرض، وعرفت الإنسان بمدى انتشاره فيها، ومدى الاختلاف الواقع بينه وبين الآخرين في لغاتهم، وعاداتهم وطقوسهم الدينية، وطرائق عيشهم، وقد كان من بين الرحالين رجال يحبون السفر والتجوال والمغامرة، ويهوون المجهول والغريب والمخاطرة.[1]

2- الرحلات الدينية:

من أشهر هذا النوع رحلات الحج والعمرة، اللذين كان من الدوافع القوية، حيث اكتست الرحلة إلى الحج قيمة مقدسة، ترددت في كثير من مذكرات المؤلفين والأعلام.

وكان للحكام والأمراء الفضل في تسيير الرحلة إلى الحجاز لكل الحجاج من الغرب والشرق ويقول محمد حسين فهيم حول هذا المضمون، نقلا عن محمود الصياد : أن الحجاج، كانوا يجتمعون في قوافل تبدأ صغيرة ثم تنموا كلما تقدم بها الطريق مما ينضم إليها من وفود، حتى يصبح في النهاية للعراق حجيجه، وللشام حجيجه، ولإفريقيا، حاجها، وتسير القافلة في ألفة ونظام وتعاطف شامل، يحميها جنود الحكام، ويرحب بها سكان المدن والقرى في معظم الأحيان، ويزداد الترحيب كلما زاد في القافلة عدد العلماء ورجال الدين.[2]

ونضيف إلى الحج، زيارة مواقع أخرى منها: زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، وزيارة أضرحة الأنبياء والأولياء الصالحين، والحج إلى البيت المقدس بالنسبة للمسيحيين، والرحلة لنشر الدين.

ومن أشهر رحلات الحج رحلة ابن جبير، ومحمد العبدري، وابن بطوطة وغيرهم ممن ساهم في تطوير فن الرحلة أسلوبا ومضمونا، وتسجيل كل كبيرة وصغيرة عن أحوال البلدان التي زاروها.

[1] سمير أم ساعد، الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري، ص 28.

[2] المرجع نفسه، ص 28.

3- الرحلات الاقتصادية:

عرفت التجارة مند القديم، دافعا لإنجاز ،الرحلة، لكنها وصلت درجة مهمة في العصر العباسي، بعدما تطورت الحياة الاقتصادية في العالم، واتسع نطاق التجارة فيه، وبالتالي أصبح التجار يسافرون إلى أرض جديدة، عن طريق السفن وغير ذلك، فبلغوا برحلاتهم ومغامراتهم الصين الهند وإفريقيا، والتعامل مع سكانها، ومن أشهر الرحلات التجارية، رحلات ياقوت الحموي (ت 626هـ) والتي بفضلها ألف كتابه (البلدان)".[1]

وقد يرتحل الإنسان بغرض العمل، أو الحاجة، وممارسة بعض المهن وغيرها من بين الأسباب المتعلقة بالاقتصاد[2].

4- الرحلات الرسمية:

يضم هذا النوع كلا من الرحلات التكليفية الإدارية، والسفارية، وهي خاصة بدوافع عديدة منها تفقد أمر الرعية، أو تلبية طلب الحكام في معاينة أماكن مجهولة أو بعيدة، والإتيان بأخبارها فقد تكون في إطار التجسس أو الاستطلاع كرحلة سلام الترجمان عام 227، والتي رواها ابن خردا دبة المتوفي عام " 272هـ والتي كانت بتكليف من الخليفة الواثق بالله قصد معرفة حقيقة السر[3].

كما يخص هذا النوع من الرحلات النشاطات السفارية المختلفة، وقد أدت الرحلات دورا مهما في تحقيق تلك الأنشطة، ولما توسعت الدولة الإسلامية وترامت أطرافها تحتم عليها اتحاد عيون، وسفراء ينقلون لها الأخبار والمعلومات الخاصة، بما يضمن استقرار الدولة، ويذهب بعض الدارسين إلى أن التجسس كان سببا في قيام بعض الرحلات القديمة أما في العصر الحديث فالأمر لا يحتاج إلى برهان بأن التجسس هو السبب الخفي لكثير من الرحلات.

---

[1] سمير أم ساعد، الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري، ص 28.

[2] المرجع نفسه، ص 29.

[3] شوقي ضيف، الرحلات دار المعارف، القاهرة، الطبعة 04، 1919، ص 09.

سادسا: أدب الرحلة في الأدب الجزائري.

1- أدب الرحلة الجزائرية:

لقد أسهم الجزائريون في أدب الرحلات مساهمة واضحة، ولا سيما القرن الثامن عشر (18)م، وكانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج وطلب العلم، والسياحة ببلدان المشرق[1]، ورغم هذه الأهمية البالغة لأدب الرحالة إلا أن الاهتمام به يكاد ينحصر لدى فئة قليلة من الباحثين والعلماء من المشتغلين بمختلف الفنون والمعارف والعلوم في العالم العربي أجمع، وفي الجزائر بصورة أخص وأدق ولكن هذا لا يمنع مجموعة قليلة من هؤلاء من الاهتمام والاشتغال بأدب الرحلة والرحالة من الزاوية التي لها علاقة باهتماماتهم ومجال تخصصهم، ومن بين أهم هؤلاء وعلى الإطلاق الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله والذي يمكننا أن نطلق عليه لقب مؤرخ الجزائر الذي تعددت اهتماماته كما تعددت مصطلحاته. ومن أهم أعلام الرحالة الجزائريين نذكر:

أحمد المقري، محمد أبو راس، عبد القادر الجرجاني، الطيب المهاجي، محمد البشير الإبراهيمي، وعثمان سعدي، وغيرهم، لكن تبقى رحلة الحسين الورتيلاني أهم رحلة جزائرية، نقلت الأخبار الجغرافية والتاريخية، للبلدان العربية، المعروفة بـ: (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، حيث يقول في هذا الشأن.. .... لا سيما أهل بلادنا، فإن علم التاريخ منعدم فيهم، وساقط عندهم، ويحسبونه كالاستهزاء، أو اشتغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنها.[2]

فمن خلال هذا القول نفهم بأن علم التاريخ علم مهم وعظيم الفائدة، ومنه جاء علم السير النبوية وقصصهم.

[1] سمير أم ساعد، الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري، ص52.

[2] الحسين بن محمد الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تقديم محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908، ص 285 288، 294، 303.

2- أنواع الرحلات الجزائرية

يقسم المهتمون أدب الرحلات إلى أقسام وأنواع تختلف باختلاف مسببات هذه الأخيرة وأهدافها، والحقيقة أن هذا التقسيم لم يعرف في البدايات الأولى لأدب الرحلة وذلك ما زاد الإقبال على تنوع الأغراض وتعدد الموضوعات حيث تطور هذا الفن الأدبي كما وكيفا، وأصبح من الأهمية بمكان حيث لا تكتمل ثقافة الإنسان بدونه كما أصبح من المصادر التاريخية، ومن هنا نقسم الرحلات إلى قسمين، هما رحلات علمية وأخرى حجازية.

أ- **الرحلة العلمية:** ونقصد بها تلك الرحلات التي يقوم بها الرحالة لغرض طلب العلم، والزيارة والاطلاع على البلدان عموما والأخذ عن علما بها وممارسة التجارة فيها أحيانا، كما يصفون فيها الحياة العلمية بصورة خاصة، ومن هذا المنطلق نجد الدكتور سعد الله الذي تحدث كثيرا عن الرحلات العلمية لرحالة جزائريين، كما يتناول أشهر الرحلات التي قام بها علماء الجزائر كما هو الحال بالنسبة لرحلة " ابن حمادوش" التي قام بها المؤلف لطلب العلم والتجارة من مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس، ثم عاد إلى الجزائر من تطوان وفي هذا وصف ابن حمادوش الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب، ولعل هذه الرحلة تعتبر مصدرا هاما عن المغرب في ذلك العهد لأهمية النصوص التي أوردها فيها ومشاهداته فيما حدث من ثورات وتقاليد اجتماعية ونشاط العلماء".[1]

وهذا الأخير لم يكن هو الوحيد الذي رحل إلى المغرب الأقصى، ودون ملاحظاته بل هناك من كتب رحلة لمواطنيه والتاريخ، أمثال محمد الزج اي، الذي كان معاصر للباي محمد الكبير وهو صاحب الرحلة الفاسية .

ولعل آخر الرحلات العلمية هي رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء، الذي جمع بين الأخبار عن الصحراء وواحتها وعاداتها، فهذه الرحلة على غاية من الأهمية ومن بين المناطق التي ذكرها ابن الدين في رحلته هي:

[1] انظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، طخ، ج2، 2007، ص 385.

الأغواط، واد ميزاب ورقلة، توقرت وغيرها، كما كان يتابع الكتابة عن مغامراته واطلاعاته في المشرق والصحراء، يضم هذا الكتاب مجموعة من التجارب في الأدب والنقد والقصة والشعر وآراء في الحركة الأدبية في الجزائر والمغرب العربي على العموم، كما يضم أخبار رحلته إلى المغرب وإلى الجزيرة العربية"[1].

نفهم من هذا القول أن الرحلة تهتم كثيرا بالجانب الأدبي، والسرد التاريخي في وصف الظروف الاجتماعية والسياسية والأسرية للرحالة.

وهكذا نالت الرحلة العلمية حقها الكامل من الاهتمام والأمان من ناحية وتحقيق أداء وظيفي لإنجاز المهام للرحالين سواء في البر أو البحر أو فيهما معا.

ب- الرحلة الحجازية:

- كانت هذه الرحلات متوفرة نسبيا، حيث كان للجزائريين في العهد العثماني رحلات إلى بلاد الحجاز، وبلاد الحرمين، وعلى هذا الأساس فإن الجزائريين الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية خلال العهد العثماني لم يذهبوا إليها كجغرافيين أو مؤرخين، وإنما توجهوا إليها حجاجا يؤدون فريضة الحج ويزورون قبر الرسول عليه الصلاة والسلام[2]، لذلك كانت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبقهم أرجلهم وخيالهم تجاوز بصرهم وشوقهم إليها ، وبهذا تنسيهم آلام الطريق وتعب السفر، وعن هذا يقول سعد الله في كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي) قائلاً:" أن توجه الجزائريين إلى الحجاز كالعادة نتيجة توق روحي نحو الحرمين وزيارة البقاع التي وطئها أقدام الرسول صلوات الله عليه وصحابته".[3]

فمن خلال هذا القول نفهم بأن الحجاز أرض طاهرة تدرك حقيقة التبرك بالدعوة والأمة الإسلامية التي تصف الأحاسيس الدينية والروحية للمسلمين لذلك يسجل هؤلاء فيها انطباعاتهم وأحاسيسهم الفياضة بالطريقة التي تروق لهم ونقصد بذلك الاستعانة بالشعر والنثر، ومنه انقسمت الرحلة الحجازية بدورها إلى رحلة حجازية شعرية وأخرى نثرية.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 386.

[2] المرجع نفسه، ص 387.

[3] المرجع نفسه، ص ن.

- الحجازية الشعرية:

يقول عبد الله بن عمر البسكري في مطلع قصيدته:

دار الحبيب أحق أن تهواها وتحن من طرب إلى ذكراها[1] .

فمن خلال هذا البيت الشعري نفهم بأن الرحلات تصف الأحاسيس الدينية والروحية، وأما في العهد العثماني فقد كانت الموشحات والقصائد تسبق الزيارة الواقعية، ولكن روح الشعر عندهم قد حلت محل ها براعة النثر كما فعل الورتيلاني.

كما نلاحظ بأن الرحلات الشعرية، كان بعضها مكتوبا بشعر فصيح وبعضها بشعر ملحون، ونجد ما كتب بالفصيح قصيدة محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني، وهي قصيدة همزية، وصف فيها مراحل رحلته، حيث كان يقيم إلى الحرمين الشريفين ثم إلى الشام والقصيدة تبدأ بهذا البيت:

أزمع السير إن دهت أدواء لشفيع الأنام فهو الدواء

إلى جانب هذا نجد عبد الرحمان بن محمد بن الخروب المجاجي الذي نظم رحلته من مجاجة إلى مكة المكرمة وهي تبدأ على النحو التالي:

نشق الفيافي قد فدا بعد فدفد جبالا و أوعارا وأرضا وطية

ونجد أيضا قصيدة محمد بن مسائب التلمساني في الشعر الملحون التي قص فيها رحلته من تلمسان إلى مكة المكرمة عبر مدن وقرى الجزائر من غربها إلى شرقها كما قام أيضا برحلة برية، مر بطرابلس ثم مصر، وتبدأ رحلته الشعرية بهذا المطلع:

يا الورشان أقصد طيبة وسلم على الساكن فيها

ويستدرك سعد الله على أن أغلب الرحلات الحجازية الجزائرية ليست شعرية والحقيقة أن الرحلة بصورة عامة في الأدب العربي نثرية وليست شعرية.

وفي هذا السياق يقول حسين نصار: " إذا تركنا الشعر إلى النثر أحسسنا أننا انتقلنا إلى مجال فسيح لا حدود له، لأن النثر هو الموطن الطبيعي للرحلة. [2]

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص ن.

[2] المرجع نفسه، ص 390.

وبهذا نفهم بأن الرحلة الحجازية النثرية هي التي يسجل فيها أصحابها انطباعاتهم عما شاهدوه وسمعوه ولا ندري أن أحدا من الجزائريين قد سجل انطباعاته في كل الأماكن، غير أن أقرب الرحلات إلى ذلك هي رحلة الورتيلاني ورحلة أبي راس.

– وتعتبر رحلة البوني المسماة (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية) أول رحلة حجازية مذكورة في المصادر والتي انتقل فيها من مصر إلى الحرمين، ورحلة أبي راس التي عدد فيها تنقلاته والمسائل العلمية التي عرضت له، ورحلة الورتيلاني التي سجل فيها مسالكه ومنازله ودراساته وأخباره والمرافقين له والحوادث التي جرت له.

إلى جانب هذا نجد رحلة ابن عمار المسماة (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب) تنقل فيها بين الجزائر والمشرق عدة مرات، والذي كان صاحب الورتيلاني في مصر سنة 1166 هـ.

ولهذا فإن الرحلة الحجازية التي كثيرا ما استوقفت الباحثين الجزائريين والأجانب عندها، وأفردوا لها ولصاحبها الدراسات المختلفة والمتعددة مثل الرحلة الورتيلانية، هذه الأخيرة كما يرى سعد الله أسهمت بشكل كبير في التاريخ كما تمتاز أيضا هذه الرحلة بكونها الوحيدة المطبوعة في شكلها الكامل و موسوعة الأخبار عن جزء كبير من العالم في القرن الثاني عشر هجري (18م) فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال.[1]

زيادة على هذا نجد أيضا رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري والتي عرض فيها الأحداث التي عاصرها كما نقل لنا عادات وتقاليد مواطنيه خاصة في منطقة الغرب، بوهران كما تحدث عن سياسة الأتراك آنذاك، لهذا أسهم الرحالون الجزائريون في العصر بمجهودات كثيرة كان لهم الفضل الكبير في وصف الرحلة".[2]

[1] انظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 392.

[2] عبدالله الركيبي، تطور النشر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، 1974، من 35.

الفصل الثاني

دراسة الفضاءات المفتوحة والمغلقة

في رحلة محمد السعيد الورتلاني

أولا: الفضاءات المفتوحة

1- الفضاء المفتوح

2- أنواع الفضاءات المفتوحة

ثانيا: الفضاءات المغلقة

1- الفضاء المغلق

2- أنواع الفضاءات المغلقة

تمهيد:

يتحدث الدارسون عن الفضاء في الأدب وهم بذلك يقصدون نوعا من التحويل المتعدد للمكان الواقعي، وعلاقاته بالشخصيات والأحداث، والأزمنة كحلقة أخرى في المنظومة المشكلة للنصوص الأدبية خاصة الرحلية منها، حيث إننا نقرأ أوصاف الأمكنة وفضاءات معينة وذلك عن طريق التقرير المباشر للوقوف أو التذكر، وأغلب الأوصاف والصور تقع أثناء القرب من الشيء الموصوف، وذلك عن طريق اللغة التي " غالبا ما تبدو بطبيعتها أكثر اقتدارا على التوجيه للعلاقات الفضائية من أي نوع من العلاقات[1] والتي تقوم بإبهام الواقع وتجسيد المكان.

– إن المكان من المحاور التي تدور عليها نظرية الأدب بحيث إنه ليس مجرد خلفية الأحداث وليس معادلا لشخصية بل أكثر من ذلك يدور حول تكوين هوية المكان الجمعي والتعبير عن المقومات المؤطرة لهذه الجماعية، فنحن لا نعترف بوجودنا فقط من خلال الوعاء الزمني بل كذلك من خلال الوعاء الفضائي الذي يحتوي على الزمن مكثفا وهذه هي وظيفته اتجاه الزمن، وهذا يعني أنه لا مكان دون زمانه.

ويمثل الفضاء في الرحلة عبور إلى الذات وانتقالا من مكان إلى آخر كعنصر مؤطر للأحداث ومحرك لها مما يعطي القيمة للنص الأدبي، ولهذا نجد المكان قد شكل في الأدبيات العربية عنصرا مهما في الحكي، خاصة فيما يتعلق بالقصائد الشعرية ورسم الأماكن والمعالم أو النصوص الحكائية المبينة في مضامينها على الحوار (المقامة) ما جعل المكان الفضاء عنصرا مذوتا، يتم تناقله عن طريق سرود مباشرة تطبع الحدث، وتجدر الإشارة إلى أن الرحلات أو النصوص الرحلية " تحاول ربط المشاهد والأفكار الإنسانية بحب المكان والتشوق للوصول إليه، وإذا كانت الرحلة اكتشاف الوعاء الفضائي، فإن المكان لا

[1] الفضاء الروائي: مجموعة من المؤلفين، ترجمة: ع الرحيم حرزل إفريقيا، الشرق، المغرب، لبنان، د ط، ص 12.

يمكن الاستغناء عنه، فهو المعتمد في تحديد اتجاه سيرها والرابط لشتاتها والمنشئ لعلاقاتها، وهو الذي يصوغ الأحداث التي يعبر عنها الخطاب".[1]

إن أي قراءة تكون الغاية منها الإحاطة الجدية بالفضاء، لا يتأتى لها البروز إلا من خلال منطلقات نظرية تتمحي لهذا الفضاء كمفهوم طابع الشمول والاتساع، ونحن ما يهمنا أساسا في بحثنا هذا هو موضوع الفضاء كمعادل للمكان في الرحلة الورتيلانية، وهذا من حيث هو نص رحلي يتم في الزمان والمكان، باعتبار الرحلة نصرا أدبي يستمد أدبيته من كونه فنا بصريا الغاية منه تقديم الفضاء المرتحل إليه بمختلف المتخيلات السردية أثناء الرحلة.

أولا: الفضاءات المفتوحة.

1- الفضاء المفتوح:

- تعرف هذه الفضاءات بمشاهد طبيعية، فهي من صنع الإنسان بكل ما يحتويه، " ويتضمن هذا المعنى مساهمة الناظر في إدراك المشهد وتذوقه وتفاعله مع ما يرى من زاوية نظر معينة، حيث تعرف هذه الفضاءات على أنها الأراضي التي لا تحتوي على بناء لمختلف الاستعمالات الأرضية[2].

فإذا أردنا الحديث عن الجانب المادي للفضاء المتخيل في الرحلة الورتلانية فإننا سوف نتحدث عن الفضاءات المفتوحة والمغلقة المتواجدة في هذه الرحلة باعتبار مدينة مصر حيزا كبيرا من الفضاء المحيط بالواقع.

وتبدأ الرحلة بوصول الشيخ الورتيلاني ودخوله إلى مصر، أين تم ملاقاته مع المغاربة وأمراء الأجناد والأتراك، حيث دخل القاهرة، المكان الأصلي أين استقر هناك، وبهذا كان المكان الفضاء – هناك مثيرا للشعور والعاطفة ومبعثا للإبداع والعجائبية في الخيال.

[1] لمبروك اعمر: الفضاء المديني ودوره في التشكيل السردي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الادب المغاربي، كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2013م، ص 79.

[2] مداخلة بعنوان: المنهج البنيوي ثنائية المغلق والمفتوح، دراسة والمناهج التعليمية.

فمن عجائبها أن أرزاقها أكثر حتى قال المغاربة أنهم ليسوا من أهل الدنيا بل أموات بالنسبة إلى ما رأوا من زخارف مصر، ولهذا نجد بأن مدينة مصر بالنسبة للرحالة بلاد إسلامية إلى جانب أن بعض الرحالة والعلماء المغاربة قضوا ما بقي من حياتهم في مصر.

– يتمحور الحضور في النص الرحلي عند الورتلاني ضمن مجال المدينة وتردده إلى أمكنتها المختلفة والتي تشمل " المساجد والأسواق والزوايا" فهذه الأنواع تعتبر فضاءات تربط بين الأمكنة والحوادث مستلزمة الوصف بتقصي الأماكن المختلفة التي تؤدي بدورها إلى تشكيل فضاء يحيط بها وينظم دلالتها المكانية الضيقة".[1]

إلى جانب هذا توجد علاقات تاريخية وحضارية مترسخة بين مصر وبلدان المغرب، فهنا تتجلى لنا كفضاء مفتوح فعند ذكر الرحالة لعجائب مصر قال: أمر مصر غريب وعجيب في كل الأصناف والأنواع والأجناس، مهما رأيت جنسا فيها إلا قلت أن هذا الجنس هو الذي في مصر، فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل في مصر وإذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير ، وإذا رأيت الأشياخ وأصحاب الأوراد قلت هم أهلها، وكذا أهل الصنائع والحرف، فما وردت قوما أو سوقا أو نزاهة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه، وهذا من عجائب مصر، فإن كل ما رآه العبد إلا قال هذا هو الموجود فيها لأن مصر تغني عن الغير ولا يستغني الغير عنها"[2].

– كما وظف الجانب الديني حين قال: " مدينة مصر مدينة الأنبياء والصحابة والتابعين والعلم وأهله"[3].

ومن خلال قراءة فاحصة للرحلة نستنبط أساس هذه المرجعية التاريخية في تقديم تاريخ العالم القديم، فالرقعة الجغرافية المضاءة ونقصد بها الجغرافيات للحضارات القديمة، كأهرامات مصر، أو بعض الحصون والقلاع المخلفة من قبل الحضارات الكبرى كاليونان

[1] لمبروك أعمر، الفضاء المديني ودوره في التشكيل السردي، ص99–100.

[2] الحسين بن محمد الورتيلاني: الرحلة الورتلانية –(نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2006، ص 646 .

[3] المصدر نفسه، ص ن .

والرومان سيتم إسناد بنائها إلى نبي من الأنبياء أو رمز من الرموز الدينية، كالنبي سليمان، ذي القرنين أو الإسكندر المقدوني.

كما وظف الخيال في وصفه لمنارة الإسكندرية وأنها تعد من بنيان العالم العجيب بناها بعض ملوك اليونان بعد الإسكندر لما كان بينهم وبين الروم من الحروب في البر والبحر، فجعلوا هذه المنارة مرقبا وجعلوا في أعلاها مرآة من الأحجار المشقة يشاهد فيها مواكب البحر، إذا أقبلت من رومية على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها.

وعلى هذا الأساس الجدلي المتولد بين طرفي ثنائية البحر والبر والصراع الدائر في هذه الهوة، نلاحظ تدخل التخييل المتولد انطلاقا من فضاء البر لأجل معالجة وردم الهوة التي خلفها حضور البحر، وامتلاك الوسائل الدفاعية لمجابهة العدو، وبالتالي فإن البحر كامتداد أساسي للبر أصبح من الوسائل الدفاعية بالضرورة ولهذا فإن تعايش المجال الحيوي البحري والبري، يعد طاقة تخيلية حاسمة في توليد الخيال والعجائبية.

أما المكان فجغرافيته محدودة حيث وظف لنا أمكنة واقعية ليست في مكانها الأصلي وهذا راجع إلى مجال الرحالة التخييلي فيزيد في نصه متعة فنية جمالية في قوله:" ويقال أن بها مساجد خمسة مقدسة مسجد موسى عليه الصلاة والسلام عند المنارة ومسجد سليمان وذي القرنين ومسجد الخضر، ومسجد عمر و بن العاص الكبير رضي الله عنه"[1].

فهنا المساجد شكلت فضاءا يرتبط بالعبادة واعتبرها الرحالة أماكن مقدسة عن طريق التذكر والاسترجاع لكنها رسمت لنا مشهدا وصفيا والآخر سرديا مرتبطا بفضاءات مغلقة.

إن الفضاء المتخيل في رحلة الورتلاني استقطب وامتزج بين الوصف والسرد بكل ما يحمله من مضامين تجسدها فضاءات داخلية في قوله:" وكانت الإسكندرية بيضاء تضيئ بالليل والنهار[2]، فهنا في هذا المقطع نلاحظ نوعا من غرائبية الآخر باستعماله للخيال الذي زاد من جمالية الرحلة، وتوظيفه لجانب غير واقعي من خلال قوله : " وكان منهم راع يرعى على شاطئ البحر وكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه فكمن له الراعي في موضع

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص 649.

[2] المصدر نفسه، ص ن.

حتى خرج فإذا جارية فتشربت بها فذهب بها إلى منزله، فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس". [1]

فهذه الشخصية العجيبة التي شملتها رحلة الورتلاني (الشيء الذي يخرج من البحر) تتطبق مع حكاية شيخ البحر الذي ظهر للسندباد في سفرة.[2]

– فهذا المخلوق العجيب الذي خرج للراعي من البحر مخلوف تغلب عليه الأوصاف الحيوانية، لا يتكلم وليس بإمكان من يقع في قبضته أن يخرج سالما ويشبه المخلوق الذي خرج للسندباد في سفرته الخامسة.

– وتنفتح معظم النصوص الرحلية على أمكنة وفضاءات مفتوحة من خلال الرحلة، مع إضفاء صفات الإعجاب والخيال وتوظيف غرائبية في المكان وهذا ما نلاحظ في هذا المقطع: وقد رأيت هذا العمود لما دخلت الإسكندرية في رحلتي ودور قاعدته ثمانية وثمانون شبرا ومن المتوارث عن أهل الإسكندرية، إن من حاداه عن قرب وغمض عينيه ثم قصد لا يصيبه بل يميل عنه وذكروا أنه لم تحصل إصابته لأحد قط مع كثرة تحريهم لذلك...[3].

كما وظف لنا الجانب الفلسفي في قوله وذكر لي بعض فضلاء الإسكندرية إنها كانت أربعة أعمدة على هذا النمط، وكانت عليها قبة يجلس عليها أرسطو.[4]

فهذا المقطع احتوى على أفكار و آراء من العالم الخيالي.

إلى جانب هذا استعمل الرحالة المبالغة في الخيال، إذ يثير الدهشة والغرابة في عمق المخيلة حيث يبعد الجانب الطبيعي المألوف ويضفي عليه طابع الغرائبية من خلال قوله:" واختلف أهل التاريخ فيمن بناها فقيل أنها من بناء الإسكندر وقيل من بناء دلوكة ملكة مصر، ويقال أن طولها كان ألف ذراع، وكان في أعلاها تماثيل من نحاس".[5]

---

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص 649.

[2] أنظر: ألف ليلة وليلة، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ج3، ص68.

[3] انظر: الحسين بن محمد الورتيلاني: المصدر السابق، ص 650.

[4] المصدر نفسه، ص ن.

[5] المصدر نفسه، ص651.

ووظف أيضا فضاء الزمان الذي كان مفتوحا عبر انتقاله في مدينة مصر عندما قال:" صار العدو منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو، ومنها تمثال كلما مضت من الليل ساعة صوت صوتا مطربا وكان بأعلاها مرآة ترى القسطنطينية وبينهما عرض البحر فكلما جهز الروم جيش رأى في تلك المرأة .[1]

– إن الاسترجاع من خلال رحلة الورتلاني يتحدد في قوله: " وحكى المسعودي أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية وأنها من بناء العالم العجيب".[2]

فهنا سرد واسع يندمج فيه الورتيلاني مع الفضاء المفتوح وتنفتح معظم النصوص الرحلية على أمكنة وفضاءات مفتوح ة مع إضفاء صفات الإعجاب، وهنا اهتم الرحالة بالفضاء المفتوح كثيرا من خلال التركيز عليه.

2– أنواع الفضاءات المفتوحة:

وهي تشتمل على:

2–1– فضاءات العادة واللقاء والمعاملات:

حيث نجد الأسواق المباني، منارة الإسكندرية، مصر، يطلق عليها بالمكان العام الذي لا يخضع امتلاكه لأحد، ويشترك في امتلاكه الناس جميعا وهذه الأمكنة تكاد تقتصر في رحلة الورت فلاني على مدينة مصر، فقد ورد على ذكره لمنارة الإسكندرية في قوله: " فإذا دخل من باب المنارة يجد على يمينه بابا فيدخل منه إلى مجلس كبير طوله عشرون ذراعا مربعا يدخل فيه الضوء من جانبي المنارة ثم يجد بيتا آخر مثله ثم مجلس كبيرا طوله عشرون ذراعا مربعا يدخل فيه الضوء من جانبي المنارة ثم يجد بيتا آخر مثله ثم مجلسا رابعا "[3]

فهو هنا تحدث عن غرائبية في المكان وبالتحديد عندما بدأ يصنف ذلك الطول الذي تحتوي عليه المنارة.

---

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص 651.

[2] المصدر نفسه، من ن.

[3] المصدر نفسه، ص 653.

كما نلمس في هذا المقطع التالي ارتدادا مكاني خيالي في قوله: " ومن عجائب الإسكندرية السواري والملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة ويرمون بالكرة فلا تقع في حجر واحد منهم إلا ملك مصر وكان يحضر هذا الملعب ما شاء الله من الناس ما يزيد على ألف ألف رجل فلا يكون منهم: أحد هو ينظر في وجه صاحبه ثم أن قرأ كتاب سمعوه جميعا أو لعب لون من الألوان في ذلك الملعب رأوه عن آخرهم".[1]

فهنا في هذا المقطع نلاحظ فضاءا مفتوحا عندما وصف الرحالة هذا الملعب وصفا تدريجيا.

وإلى جانب هذا نلاحظ اختراقا فعلي للفضاء، لم يعط لنا وصفا دقيقا بل تعداه إلى مستوى الجمال والخيال حين قال: ومن عجائبها عمود الأعباء وهما عمودان ملتقيان وراء كل عمود منهما جبل حصى كحصى الجماري فمتى أقبل النصب بسبع حصيات من ذلك الحصن فاستلقى على إحداهما ثم رمى وراءه بالسبع حصيات ويقوم ولا يلتفت".[2]

ومن عجائبها القبة الخضراء وهي أعجب قبة ملبسة نحاسا كأنه الذهب الإبريز يبليه القدم ولا يخلقه الدهر.

– كما نجد الغريب في أمر الدين حين كان يدعو إلى السير في الأرض والتفكير في معجزات الله في أرضه وخلقه والنظر في مصير الأمم السابقة، وهنا ما يحرك قالب الرحلة وهذا ما نلمسه في هذا القول: " ومن عجائبها منية عتبة وحصن فارس وكنيسة أسفل الأرض، وهي مدينة على مدينة وليس على وجه الأرض مثلها[3].

وفي قوله: "أنها إرم ذات العماد"[4]، فهنا وظف لنا الجانب الديني في قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿ألم ترَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾[5].

---

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص654.

[2] المصدر نفسه، ص 656.

[3] المصدر نفسه، ص ن.

[4] المصدر نفسه، ص ن.

[5] سورة الفجر، الآية: 76

– فهذه الآية الكريمة يعرض فيها قصة عاد وشدتهم وقوتهم، وكيف كان بناؤهم للجنة التي كانت في صورة جنة الآخرة، وكيف كانت عاقبتهم بالدمار والزوال على قوتهم وبؤسهم " وهذا كله من أجل بث روح التقوى والخشية من الله في مخيال المتلقي المسلم الذي تثيره قصة كهذه لما تحويه من عجب ومثير"[1].

2-2- فضاءات جماعية (الوظائف الحيوية):

وهي تشمل المباني عمود السواري، القلعة، وغيرها.

– إن مدينة مصر تصنف من خلال الوظائف التي تقدمها مرافقها ومواقعها، وكل ذلك لاشك أن يكون خاضعا لعوامل عديدة، اجتماعية، ثقافية، تاريخية.

فرحلة الورتيلاني من خلال ذكرها لهذه المباني، إنما تقدم الطابع الجمالي لها، وهذا ما يشكل صورة فنية بليغة ذات مضامين مختلفة، " تشكل نماذج للعالم تساعد على إضفاء معنى على الحياة فتصبح بذلك الأنظمة التاريخية للفضاء المفتوح مما يشكل نسقا متكاملا متعلق بأنماط ثقافية تكتسب، دلالة من خلال وضعه في إطار أبنية صور العالم"[2].

كما يبين عجائب الإسكندرية في قوله: " وما ذكر في الإسكندرية من الغرائب والأبنية والعجائب، لم يبق بها الآن سوى عمود السواري وغيره اجتاحه الدهر وأبلاه، واستأصله وأفناه، ولم يبق لها من الآثار إلا ما يذكر في الأخبار".[3]

ولم يكتف السارد في رحلته بالاستغراب، بل راح يرسم حدود فضاءاته، كقبر الخزرجي المشهور في مصر، فإن ذلك لم ينحصر عند حدود الانبهار بل راح الرحالة يذكر القبور المتواجدة هناك، فهذه الأخيرة تجسد وعيه الذي يتجلى في بعض المواضع من الرحلة، يقدم لنا الورتيلاني فضاءات مفتوحة بوصف فني دقيق لبعض الآثار التي حافظت على ميزتها ونمطها (الأهرامات) مثلا.

---

[1] كمال بولعسل: سيمائية القضاء في رحلة أبي حامد الغرناطي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006م، ص 95.

[2] جماليات المكان، عيون المقالات، ص69.

[3] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص657.

إن رحلة الورتيلاني تتبني على فضاءات مفتوحة وهي فضاءات اتصال وعبور تشكل كلها تكثيفات وتسلسلات على مستوى وصف الأمكنة، فرحلته ليست إكتشافا للمجهول فقط بل تأسيسا ووسيلة للمعرفة والاستكشاف، وهذا من خلال الوصف الذي يقدمه حول الفضاء المفتوح في علاقات من التناغم أو التنافر، حيث يتوحد معها السارد، فهذه الكثافة التعبيرية والوضعية والتي تتميز بها رحلة الورتيلاني من خلال وصفه للمساجد الموجودة في مصر والقبور والجوانب العمرانية هناك وغيرها فهذه الأوصاف تكشف كلها عن حمولة ووعي ديني يرسمان المشاهدات، ويبررانها، " فقد وفق الرحالة في الوصف وتحديد الأمكنة الموجودة في مصر وصنفها ضمن الفضاءات المفتوحة متخذا من الوصف الدقيق وسيلة لتحقيق وتقديم متعة جمالية "[1]، ومعرفة جغرافية وتاريخية عبر الوقفات التي يتخذها كسارد يولد تفاصيل في التضخيم والوصف كشيء يجب أن يكون رمزا للقارئ.

2-3- فضاءات نفعية طبيعية:

وتشمل البحر والنهر والجزر ولقد ظل البحر دوما يشكل مساحة من الأرض، يضطلع على أدوار، مختلفة شكلت لذى الإنسان وولدت فيه علاقات الدهشة والخوف، وهو كمصدر للعيش بمعناه الاجتماعي والنفعي والمغامرات والعجائب والرحلات.

- إن الحديث عن الفضاءات المفتوحة في رحلة الورتيلاني هو ذكره لنهر النيل واعتبره بحر حيث يقول أحد الرحالة وذيلها من عجائب الدنيا عذوبة واتساعا وغلة وانتفاعا وقد وضعت عليه المدائن والقرى فصار كسلك دررا ".[2]

بالإضافة إلى عنصري البحر والنهر نجد الرحالة يقول في احد المواضع " إن مصر هي مزرعة الدنيا التي لا نظير لها وبابها الغربي متصل ببادية برقة الفاصلة بين بلاد المشرق والمغرب فلا بادية في الدنيا تدانيها في اتساع الأقطار وطيب المرعى وصحة الهواء[3]، ففي هذا المقطع رسم لنا فضاءا مفتوحا على تغيرات عديدة فرضتها عوامل الزمن وتفاعلات الإنسان والتغيرات التي يحدثها سواء بإرادته أو دونها.

[1] لمبروك أعمر: الفضاء المديني ودوره في التشكيل السردي، ص 10.

[2] المرجع نفسه، ص107.

[3] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص 658.

ثانيا: الفضاءات المغلقة.

1- الفضاء المغلق:

لعل ما يثيره هذا الاسم هو غرابة الطرح، لنقول كيف يمكن أن يكون فضاءا مغلقا ؟!

- إن الفضاء المغلق يكتسي طابعا خاصا من خلال تفاعل الشخصية ومن خلال مقابلته بفضاء أكثر انفتاحا واتساعا، فالمكان له علاقة مباشرة بالفقدان والانفصال واللاتوازن، فهو مرجع علامي ممتلئ دلاليا"[1].

- إن فكرة الانغلاق والانفتاح، فضاء مفتوح - مغلق هي في الأصل مسألة نسبية لم تكتمل، تتحكم فيها زاوية النظر، فما نراه فضاء مغلقا كالبيت والمسجد يراه غيرنا مفتوحا وبذلك يصبح الفضاء العادي أليفا ومرغوبا به.

إن المكان في دلالته يكتسب وجودا متميزا، يحمل أبعاد هندسية ذات وظائف يقوم بها فإذا قلنا أن الفضاء المفتوح امتداد كوني عام، فإن الإنسان مرتبط تمام الارتباط بالفضاءات التي يقوم فيها بوظائف ضرورية " كالبيت نظرا لما يحمله من مضامين نفسية فهو مكان الألفة ومركز لتكييف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائما يستعيد ذكراه، ونسقط على كثير من مظاهر الحياة من جوانبها المادية ذلك الإحساس بالحماية والأمن اللذين يوفرهما لنا". [2]

وبذلك يكتسي هذا الفضاء طابعا حيويا يتفاعل فيه كل ما هو تقني واجتماعي وروحي وفلسفي، في نظرة الإنسان إلى هذا الفضاء الذي ينتمي إليه.

بالإضافة إلى البيت نجد كذلك فضاءات أخرى تتعلق أساسا بالجانب الروحي لدى الرحالة وبكل ما يحيط به في العالمين الداخلي والخارجي.

---

[1] أحلام معمري: بنية الخطاب السردي في رواية: فوضى الحواس ل: أحلام مستغانمي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة ورقلة، 2004، ص 77.

[2] لمبروك أعمر: الفضاء المديني ودوره في التشكيل السردي، رسالة ماجستير، ص112.

2- أنواع الفضاءات المغلقة:

وتشتمل على:

2-1- فضاءات للعبادة: وتشمل المساجد والجوامع والكنائس فهذه الرحلة الورتلانية تشكل ملتقى الفضاءات المغلقة بجدرانها المفتوحة في أبعادها ومضامينها، البعض منها يثي الإعجاب والآخر يصور مشهدا مشوقا، فحضور هذه الرحلة صادر عن موقف ديني يتبناه الورتيلاني، فهو ينادي بالقيم الدينية ويعطي أهمية للمساجد والمزارات فهو يذكر في قوله لبعض الزوايا فيقول:" زاوية أبي الحسن الشاذلي كان يأوي إليها هو وأصحابه وهي قلعة كبيرة في سور البلد الشرقي فيها بيوت متعددة ومنها قبر سيدي أحمد المناري وهو مشهور البركة وسبب تسميته بالمناري على ما قالوا أنه قدم البلد ومعه حمارة له وقال لهم أين أبيت فأشاروا كالمستهزئين به إلى المنارة فقال لهم: بسم وصعد إلى بحمارته الله أعلاها فاجتمع الناس ينظرون متعجبين وهذا في حق أولياء الله تعالى".[1]

فيدل هذا الوصف على الدقة الخيالية في تحديد الأماكن العجيبة لبلد مصر.

بينما يذهب الرحالة إلى وصف المساجد الأخرى منها:

" مسجد دمشق وكنيسة الرها وقنطرة لج وقصر عمان وكنيسة رومية وصنم الزيتون وايوان كسرى بالمدائن وبيت الريح بتدمر والخورنق بالجيرة: والثلاثة أحجار ببعلبك والعشرون الباقية بمصر"[2] وهذا دليل على سعة الاهتمام بالمساجد بكل موضوعية. كما يبدي السارد كذلك اهتمامه في نفس السياق لدرجة اهتمام أهل مصر به كفضاء مقدس، بالإضافة إلى حصانة مدينة مصر وإتقان بنائها فإن فيها المسجد الجامع الذي بناه عمرو بن العاص.

ويقول في موضع آخر: وإذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان ولذلك قال بعض من رآهما ليس شينا إلا وأن أرحمه من الدهر إلا الهرمان فأنا أرحم الدهر منهما وصنم الهرمين وهو بلهوية ويقال بلهنبت، وتسميه العامة أب الهول والفيوم وهي مدينة دبرها يوسف

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص 657 .

[2] المصدر نفسه، ص664.

عليه السلام بالوحي وكانت ثلاثمائة وستين قرية على كل قرية منها وليس في الدنيا بلد بني بالوحي غيرها، وجبل الطير فيه أعجوبة لم ير مثلها وهي باقية إلى الآن ومنها النيل ومنها الإسكندرية مدينة على

مدينة على ثلاث طبقات وليس على وجه الأرض مدينة على مدينة على هذه الصفة سواها".[1]

فهذا المقطع، فيه سرد عجائبي خارق في التخييل من جهة، ومن جهة أخرى اللجوء إلى التعجيب في الحكي من خلال سرد أحداث يبقى المتلقي مترددا في تصديقها أو تكذيبها، وهذا ما يضفي على النص طابع الخيال ويستحيل تحققه في الواقع.

إن الفضاء المغلق بجانبه التاريخي مرتبط بالزمن الذي يلعب دورا في تشكيله، فبقاء الفضاء عبر الزمن دليل على الاستمرار وعلى الرعاية ، فلا غرابة في أن يعتمد السارد على خلفياته الدينية أو العقائدية لتشكيل هذا الفضاء وتحميله أبعادا دينية.

2-2- فضاءات زيارية:

وهي تشمل الزوايا والقبور والأضرحة حيث أن الورتيلاني فإني أشار إلى هذه الفضاءات المغلقة متخللة المساجد والجوامع كمرافق مصاحبة لها تعود لأقوام كان لهم الصيت والذكر الحسن في الحياة ما جعلهم محط الزيارة والتبرك بهم في قوله في هذا المقطع: " إن جامع ابن طولون يقال أنه قطعة من الجبل المقدس ويشكر رجل صالح وإن هذا الجبل يستجاب فيه الدعاء وكان يصلي عليه التابعون وقد أشار ابن الصلاح على ابن طولون أنه يبني جامعه فيه.[2]

كما ذكر بعض الأولياء ومزاراتهم فذكر منهم: سيدي محمد البهلولي، سيدي أحمد مداح وبن ناصر، الشيخ السنوسي وغيرهم، فهذه الأنواع اعتبرها الورتيلاني فضاءات مغلقة، يعود اهتمامه بذكر قيود الأولياء مما نشكل وجودا لافتا في رحلته على غرار الرحلات الأخرى.

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص665.

[2] المصدر نفسه، ص 665.

إلى جانب هذه الفضاءات الزيارية نجد أن الرحالة وظف لنا المنامات واعتبرها جزءا من الخيال، فالمنامات دالة على نسق ثقافي مسكوت عنه أحيانا، تطرح قضية الصدق من عدمه، والخطاب الذي تحمله في قول الرحالة في هذا المقطع: " قلت في نفسي هذا سر من أسرار الله تعالى فلا يليق حمل كلام على مقتضى الظاهر ففتح بعد ذلك أن المراد بالقطران الدنيا فكأنه قال اللهم شبعه منها حتى تتسع اتساعا يليق بمثله ولذا قال جزاؤه على أني رأيت عم أبي المقبل على الله بشرارة وكان يحبني في صغري ويتوسم في الخير العظيم ولم يمت حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم مرارا فقال لي: إن الله أورتك سر هذا السيد فقلت له وكذا ما له فقال لا ففهمت أن كل من كان من آله صلى الله عليه وسلم يرزق كفافا".[1]

فهذه التخيلات جاءت على شكل محكيات ذلك أن الحلم في النص الرحلي قابل ليقظات عديدة وكل يقظة تقدم رؤية معينة إلى جانب هذا نجد أن الرحالة وظف لنا الكرامات واعتبرها نوع من المزارات، وهي ترتبط أساسا بالأولياء والتبرك بهم، فهذا النص يؤسس لرؤية معينة للحلم، كأحداث تقع فوق قدرة الإنسان أحيانا يعرفها أحد الأئمة بقوله : " حدث خارق يجريه الله على يد الأولياء وغير الأولياء من عباده الصالحين من حيث لا يدرون ولا يعلمون[2] وهي ذات علاقة وطيدة بالسير الشعبية.

وبالغ الورتيلاني في الخيال حينما تحدث عن بناء قصر الجعفرية حيث قال: "كيف ترى هذا القصر، قال القصر"[3] في الدنيا وأنت تبني الدنيا في القصر" فهنا نجد لذة في التخيل وفضاءا جمالي يبرز مكان رائعا.

كما وصف أهل، مصر بعاداتهم وتقاليدهم وتمسكهم بالكرامات في قوله: " وكان أبو العباس أحمد القادر بالله يتصف بالصدقة ويحب الفقراء ويوتر التبرك بهم كما كان يختم القرآن في كل جمعة" فهنا اهتم بالجانب الديني الإسلامي، كما كان محبا للصالحين وقطع

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص 720.

[2] المصدر نفسه، ص654.

[3] المصدر نفسه، ص 650.

الظلم. وبهذا نجد أن الرحالة الورتيلاني اهتم كثيرا بهذه العادات التي كانت رمز الخير والتبرك لبلد مصر في تلك الفترة.

كما نلاحظ أيضا في هذا المقطع " ومن عجائب ما وقع في الأرض جزيرة الأندلس دارت بها البحور من كل جهة وليس لها إلا باب واحد.[1]

فهنا نلاحظ تعمقا في التخييل وأن فضاء البحر غاية في الإثارة والإعجاب والدهشة والغرائبية.

إلى جانب هذا نلاحظ تسرب الاشتغال التخييلي داخل البنى الواقعية الذي جعله مجالا خصبا حافلا بالعجائبية لما يمتلكه هذا الفضاء في قوله:" ومن عجائب النيل أن جميع أنهار الدنيا تجري للمشرق أو المغرب ولا يجري ؟ للشمال نهر إلا النيل فإنه يشق خط الاستواء ويسير إلى بلاد الحبشة إلا بلاد كوكو إلى أصوان إلى مصر إلى أن يقع في بحر الروم، وإذا قل ماء جميع الأرض تقوى النيل وزاد وفاض فيخرج على الأرض عشرين ميلا وأكثر وأقل بحسب انخفاض الأرض وارتفاعها".[2]

ثم جاء في وصف النيل وعجائبه في قوله:

"ومنها يخرج النيل الذي لا أعجب منه ولا أكبر منه نهرا في الدنيا هو من عجائب صنع الله تعالى ويتفرع منه أنهار إلى بلاد التوبة وبلاد جاوة وهي جزيرة وسط البحر قد دارت بها البحور من كل الجهات[3] وهنا أخذ المألوف إلى الغريب حتى يترك دهشة ومتعة لذى القارئ وذلك من أجل أن يترك له عنصر الانبهار.

– كما نلاحظ منابع العجيب بأمر الدين والتفكير في معجزات الله في خلقه، وذلك من خلال هذا القول: " وقد قال صلى الله عليه وسلم إن بأقصى الأرض جزيرة يقال لها الأندلس سيكون فيها رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حيهم سعيد وميتهم شهيد ثم

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص663.

[2] المصدر نفسه، ص 664.

[3] المصدر نفسه، ص668.

يتوارثها قوم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، والذي نفسي بيده كأني أنظر إلى نسائهم كاشفات الرؤوس لا يدرون أين يهربون ! ولا يجدون مهربا".[1]

ويواصل السارد عنصر التخييل مما يجعل المتلقي يدخل في ذهول ودهشة عند تعرفه على هذه العوالم الجديدة الذي يجمع فيها بين عنصري الواقع والخيال:" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جزيرة المغرب منقطعة يقال لها الأندلس يسكنها أقوام غرباء في آخر الزمان رباط يوم وليلة فيها يعدل عند الله عبادة أو خمسين سنة النائم فيها مع عياله على فراشه كالضارب منكم بالسيف بين يدي . كالصائم القائم في غيرها فطوبى لمن أدركه أثر قدم فيها كأثر شهيد في دمه وشهداؤها أفضل الشهداء، هي الجزيرة الخضراء وأن الريح لتحمل أرواحهم إلى بيت المقدس إلى يوم القيامة فيبعثون مع النبيين".[2]

ففي هذا القول نلاحظ إدراج جوانب إنسانية أخلاقية لدى بعض فضلاء أهل مصر، تدخل في جانب الكرامات باعتبارها عنصرا مهما في القيم والمبادئ التي تندرج ضمن الصفات الأخلاقية التي يتحلون بها في قوله:" ومن بني سليمان جماعة فيهم المحب العارف المجذوب بالتحقيق المقبل على الله بالصدق والتصديق من بني بورمان سيدي سعيد فأني سمعت بنات فكره في الوعظ وطريق الحب بالبربرية سلب العقل يكاد أن يكون كلام ابن عطاء الله وإنما فاته لما كان كلامه بغير العربية.[3]

2-3- فضاءات تعليمية:

وهي تشمل المجالس المدارس بوصفها حلقات للدرس والنهل من العلوم باعتبار مصر تشتغل إلا بعلم المنطق حيث يقول في بعض المقاطع من رحلته:" أقول أيضا وقد اجتمعت معه في بجاية وكان يلازمها في رمضان وهي رباط وزيارة فمررت عليه (بعض الشيوخ) فسألته الدعاء فقال لي أنت الذي تقرئ الطلبة هنا في رمضان فقال لي خذ هذه الرسالة أسردها علي وكان أمي لا يقرأ ولا يكتب، وإنما فيض إلهي فاض عليه فإن الله لا

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص 675.

[2] المصدر نفسه، ص 678.

[3] المصدر نفسه، ص 678.

يتخذ وليا إلا وعلمه فلما قرأتها وجدتها فيها أن فلانا قد بعث لك خمسمائة رطل من قطران السفينتك التي استعددتها للجهاد والغنائم فقال في الجواب اللهم اسق القطران له وشبعه منه".[1]

فهذه المجالس يطغى عليها الجانب العلمي الديني حيث كانت عفوية غير منتظمة شملت العديد من المجالات بكل موضوعية.

– إن المجلس باعتباره الفضاء الأساس لإنتاج الحكي يأخذ طابعا متميزا، فقد لعب هذا الفضاء المغلق في إطاره والذي يجد لنفسه فسحة من الانفتاح على فضاء أوسع سواء كان مسجد أو مدرسة.

ويقول في موضع آخر: " إن استعظام الشيخ ملك الاثنين ليس على ظاهرة إنما هو الدنيا والآخرة فالجمع بينهما أمر كثير لا يليق بالمعلم فالآخرة تكفي".[2]

أما عند خروج الورتيلاني من مدينة مصر انطلق من فضاء واقعي في قوله: " وذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة أن ما بين الإسكندرية وبين بلادها أي وبين القسطنطينية، كان في قديم الزمان أرضا تنبت الجميز وكانت مسكونة. "[3]

إلى جانب هذا نجد غرائبية في الزمان حين قال: " وكان في مصر طائر يقال له فه فقي وهو طائر حسن الصوت وإذا حان موته زاد حسنا في صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحد أن يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع وأنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح.[4]

حيث نلاحظ في هذا المقطع فضاء غرائبيا مرتبطا بالزمان وهو صوت الطائر الذي يتحول بسبعة أيام.

---

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص 719.

[2] المصدر نفسه، ص 719.

[3] المصدر نفسه، ص 381.

[4] المصدر نفسه، ص384.

فهنا استنجد الرحالة بخطة تخييلية لمحاولة إسقاط الضوء على قتامة المكان. ورغم كل هذا فإن الطبيعة، كثيرا ما كانت البؤرة الموضوعية بالنسبة لوعي الرحالة، في حالة من الذهول والغرابة فالسارد أثناء رحلته راح يتأمل في مدينة مصر من دخوله إلى خروجه منها.

فهو في هذا الموضع يقول: " فإذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أخضر فدخلوها وطافوا بها، فإذا هي قد غلب عليها الرمل حتى طمر أسواقها ودورها ووجدوا بها أواني فإذا حجر على صهريج ماء فشربوا منه ما أبرد من الثلج"[1] " كما وظف الخيال واستعمل فيه الوصف الذي وصل به إلى الجمالية حين قال: وسرنا إلى وادي القباب وهو واد فسيح الرحاب، تهيم به قلوب الأحباب، ويتذكر به عهد زينب والرباب، لا سيما اجتماع الأصحاب في مواطن البعد والاغتراب"[2] ففي هذه الرحلة تظهر لنا الكثير من العجائبية لأنها نسج من الخيال، وكلما اقترنت الغرابة والتعجيب بالتخييل كانت أبدع، فالرحلة الورتيلانية كانت سجلا تاريخيا لأدب الرحلات. كما تحدث أثناء خروجه من طرابلس عن بنية المكان في رحلته التي تحلينا إلى مرجع الفضاء الواقعي، هذا الفضاء مكون من مجموعة لا متناهية من الدول مثل طرابلس بلدة مدرسة أرض زوايا القرآن، فالمساجد لها مدلولاتها التي تعطيها شحنتها الإيديولوجية والدينية، كما وصف لنا عادات الناس وتقاليدهم وارتباطهم بالتاريخ حين قال: مررنا بأهل الفاضل الكامل الأخ في الله سيدي عبد الخالق فنزلنا عندهم صبيحة فأطعمونا بالكسكس واللحم كثر الله خيرهم فدعونا بقريحة قلب"[3] كما وصفهم في قوله: " إنهم أهل كرم وود ومحبة واعتقاد زائد وأحوال صادقة وواردات ظاهرة ومواجد عظيمة بيئة يظن الإنسان أن الخير مقصور على هذه الزاوية وهي بلدة ذات فواكه وأشجار ومزارع وعمارة كبيرة لا تحيط به العبارة وتقصر عليها الإشارة".[4]

---

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص 678.

[2] المصدر نفسه، ص388.

[3] المصدر نفسه، ص740.

[4] المصدر نفسه، ص 743.

حيث نلاحظ من خلال هذا المقطع نوع من العجائبية في إيصال الحدث فوق الطبيعي وتجسيده على مستويات معينة في تناوب مع السرد الذي يكمل الوصف الذي يجعل الشيء مرئيا على نحو ما.

وانتقل في وصفه إلى العلماء والفضلاء في قوله: " ان العلماء والفضلاء خيار هذه الأمة وهذه الأمة خيار الأمم ولذلك ارتفع المسخ أي مسخ الظاهر، وأما مسخ القلب فقد بقي لم يرتفع، فنجد طبائع الإنسان على طبائع الحيوانات فمنهم من يكون كالثعبان ومنهم كالخنزير ومنهم كالقرد ومنهم كالذئب".[1]

فهنا وصف تجلى من خلال لجوء الرحالة إلى وصف دقيق لطبائع الإنسان وشبهها بالحيوان.

ولهذا نجد في الحقيقة بأن رحلة الورتيلاني سجلت مفارقات مختلفة حين انتقل من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى أخرى فرحلته تطرح نوعا من الالتحام الأنثروبولوجي بين الحضارة والرحالة في قوله:" سرنا إلى أن قربنا قرية مشهورة، فيها قصر عظيم وبناء جسيم حكيم البنيان متقن الصنعة عريض المتن له أبواب كثيرة طبقة على طبقة واسع المتن طويل البناء ولا أعلم من بناه"[2].

ولهذا نجد نصوص رحلة الورتيلاني ترشدنا إلى أساليب إعادة تقييم الآخر في المنظومة العربية الإسلامية، من خلال حركة الدراسات الأنثروبولوجيا والجغرافية خاصة في وصف مزايا وصفات الأولياء الصالحين والأمكنة وذلك من خلال قوله:" وهذا أن سوسة محل الصالحين والعلماء العاملين أحياء وأمواتا ظاهرة البركة بلدة طيبة (واسعة البساتين كثيرة الفواكه طعامها جيد وخبزها طيب)، واسعة الأرزاق حلوة المذاق، يستحسنها الناظر، ويتمناها المقيم والمسافر تصبح أن تكون قاعدة من قواعد الملك فهي ظريفة شريفة، طيبة، منيفة، تعدل جميع ما رأيناه"[3] فمن خلال هذا المقطع نلاحظ وصف للأمكنة والكرامات ووصف للأرزاق التي تتميز بها مدينة طرابلس.

---

[1] الحسين بن محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية، ص751.

[2] المصدر نفسه، ص 757.

[3] المصدر نفسه، ص 758.

خاتمة

خاتمة:

لكل بداية نهاية وها قد وصل هذا البحث إلى نهايته الذي كان موضوعه الفضاء المتخيل في الرحلة الجزائرية متخذين رحلة الورتيلاني أنموذجا، مستخلصين في آخر المطاف أهم النتائج التي توصلنا إليها، حيث يمكن رصدها في النقاط التالية:

– إن الورتيلاني اهتم بجمع العلوم الفقهية وأصول الذكر على الطريقة الشاذلية وإنجاز شروحات مستفيضة من عالم التصوف.

– اهتم أدب الرحلة عند الورتيلاني بتحديد الفضاء المفتوح والمغلق وتصنيفه الأنواع متعددة من زيارية إلى طبيعية إلى فضاء العبادة المختص بالمساجد التي يعتبرها فضاءًا للعبادة.

– كان للأدب دور فعال في تطور الرحلة الورتيلانية وذلك حين أظهرت لنا ميولا قويا حول علوم الدين والتاريخ .

– تعتبر الرحلة الورتيلانية أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية لكشف المجهول والوصول إلى الغاية الكاملة.

– يتمتع أدب الرحلة بقدرات سردية عالية وهذا لما نقل التجارب الرحلية في غاية من الإثارة والمتعة.

استمدت الرحلة الورتيلانية سياقها من البيئة الإسلامية الحضارية.

– اهتم نص الرحلة بالمضامين الأنثروبولوجيا التي وصفت العادات والتقاليد المرتبطة بالكرامات عند أهل مصر وذلك من خلال الاتصال الحضاري الذي لعب دورا مهما عند أهلها.

– وقف فضاء الرحلة عند الورتيلاني على الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال، حيث كان الوصف هو البنية العميقة للرحلة.

– إن بنية الرحلة الورتيلانية تحكمها ثنائية الذهاب والإياب وذلك يكمن في دخول الشيخ الورتيلاني إلى مصر ووصف أهلها وعاداتها وخروجه منها.

– سجل الورتيلاني أثناء رحلته مشاهدات وانطباعات أهل مصر خاصة عندما احتك بعلمائها هناك في المجالس التعليمية التي كانت موافقة لشخصيته.

– لعب الخيال طاقة عجيبة في السرد حيث أن أدب الرحلة فيه نوع من العجائبية والمشاهدات الدقيقة التي تستحضر الذاكرة مع تعاقب الأحداث بكل موضوعية

– اهتم الورتيلاني في رحلته بالمحدودات المكانية والزمانية وذلك حين جمع فيها بين تدوين التاريخ والكتابة الجغرافية وذكره للكرامات الصوفية.

– تميزت الرحلة عند الورتيلاني بخصائص تميزها عن الأجناس النثرية الأخرى، وهذه الخصائص تتمثل في هيمنة السفر التي تؤثر على الأحداث وتنظمها.

وبهذا نقول أن أدب الرحلة يكمن في كونه اليد التي تمتد لتقرب شعوبًا تباعدت عن شعوب، وأقوام عن أقوام، كما أنها تعتبر من المصادر الجغرافية والأدبية والتاريخية في تطور الأدب.

– هذه جملة النتائج التي توصلنا إليها من خلال بحثنا هذا، فنرجوا أن نكون قد وفقنا إلى حد ما في تحصيلها.

ملاحق

- الحسين الورتيلاني:

يعتبر الورتيلاني من أكبر العلماء والمشايخ الذين عرفتهم الجزائر ذلك أنه أسهم بعمل كبير جدا في الرحلة والتاريخ والمعروف بالرحلة الورتيلانية.

- مولده:

ولد الحسين بن محمد السعيد في بني ورتلان بسطيف، سنة1125هـ- 1713م، ويسب إلى أسرة عربية شريفة، تزوج الورتيلاني من إحدى بنات أسرة المسعودين عبد الرحمان تدعى عويشة.

- نشأته:

نشأ الورتيلاني نشأة فقيرة أساسها التقشف الصوفي، وفي المدرسة القرآنية التي كان يديرها والده، حفظ القرآن الكريم على يد والده، ثم درس الفقه، النحو، العروض والتاريخ، وهكذا أصبح الورتيلاني كجده ووالده من علماء المنطقة البارزين، غلبت على الورتيلاني الروح الصوفية أكثر من الروح الفقهية، تفرع الدراسة اللغة العربية والتبحر في آدابها، جمع بين علوم الظاهر وعلوم الباطن، كان يسير في مذهبه على الطريقة الشادلية، كان يبدي اهتماما بأحوال الدنيا، كما كان يكره أهل الحضر والحكام العثمانيين، حيث كان يُصلح بين الناس ذات البين، ويعلم مبادئ الدين، وقد ذكر أنه أثناء رحلته الأخيرة أخذ معه زوجتيه عويشة وعائشة، كان له أبناء أحدهم هو محمد كان متزوج من فاطمة أخت عويشة وقد ذهب معه إلى الحج".[1]

- مؤلفاته:

ألف الورتيلاني عدة كتب معظمها في الفقه والتصوف والتوحيد، وأكبر عمل ألفه في التاريخ والأخبار هي رحلة بعنوان "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" وتعرف بالرحلة الورتيلانية وهو وصف رحلته إلى الديار المقدسة، وما شاهده من الأمكنة والآثار ولقيم العلماء والأعيان وغيرهم.

[1] القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص395.

له عدة قصائد في الرثاء لبعض الرجال المتصوفة منها : القصيدة مشهورة رثا فيها أحمد رزوق البرنوسي، بالإضافة إلى كتاب الرحلة الشامية كتاب بعنوان شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار، رسالة في قول بعض الأولياء" نسجت برنسا من ماء"، شرح كتاب الصلاة شرحه لبردة البوصيري، كما له قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مكونة من 5000 بيت، كما شرح محصل المقاصد لأحمد بن زكريا التلمساني، شرح القدسية للأخضري، وله أيضا حاشية على حاشية المحقق السكستاني".[1]

رحلته: وتمثلت في ثلاث حجات:

الأولى سنة 1153 هـ الثانية سنة 1166هـ والثالثة سنة 1179هـ وفي إحدى هذه الحجات اضطر إلى الرجوع من تونس، وكان قد سافر بالبر لأنه قد وصف طريقه بالتفصيل، وقد وصف الورتيلاني أي منطقة مرَّ بها، كما وصف مصر وأهلها وعلماءها وعاداتها، وهكذا يتضح أن رحلة الورتيلاني تعتبر موسوعة عن جزء كبير من أخبار العالم الإسلامي في القرن 12 – 18م، حيث قام محمد بن أبي شنب بتحقيق هذه الرحلة ونشرها لأول مرة عام 1908م، التي كانت عنوانها " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" المعروف بالرحلة الورتيلانية.

– وفاته:

كانت وفاته عام 1779م أو 1780م بمسقط رأسه في قرية "أنو" ودفن في مقبرتها، وما يزال قبره قائما إلى اليوم.

فالورتيلاني رحمه الله من أهل الصدق بالولاية الكبرى، محبا للخير وإصلاح ذات البين.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص395.

قائمة المصادر والمراجع

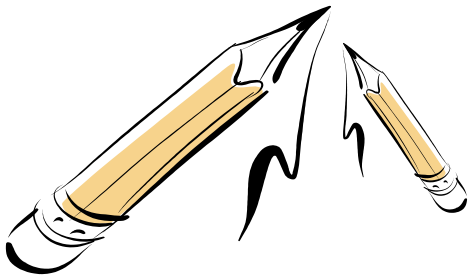

- **القرآن الكريم.**

- **المصادر:**

1. الحسين بن محمد الورتيلاني: الرحلة الورتلانية –(نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2006.

- **المراجع:**

2. ابراهيم جنداري: القضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1، 2001.

3. ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.

4. ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة، نسيج بين الواقع والخيال ل: شادي حكمت ناصر، بيروت، لبنان، حزيران 2003م.

5. ابن منظور المصري، لسان العرب مادة رحل، دار صاد و دار بيروت، لبنان، د ت، ط01، 2006.

6. ابن منظور: لسان العرب مادة (ف ض أ)، ضبط نصه وعلق حواشيه خالد رشيد قاضي، دار صبح وإديسوفت، بيروت، لبنان، ج10، ط1، 2006.

7. ابن منظور: لسان العرب مادة خيل المجلد السادس ك – ل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.

8. أبو الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ت: سعيد محمد اللخام، ج1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000.

9. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، طخ، ج2، 2007.

10. جيل دولوز وفليكس قطري: ماهي الفلسفة، دار النشر والتوزيع، 1991م.

11. حسني محمود وحسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1983.

12. الحسين بن محمد الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تقديم محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908، ص 285 288، 294.

13. حميد لحميداني: بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ط1، 1991.

14. الدكتور ناصر عبد الرزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي، دار النشر للجامعات المصرية، الطبعة1، 1995.

15. سميرة أمساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2009.

16. شوقي ضيف، الرحلات دار المعارف، القاهرة، الطبعة 04، 1919.

17. صلاح الدين الشامي: الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية 1982م.

18. صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، نشأة المعارف، الإسكندرية، 1982م.

19. عبدالله الركيبي، تطور النشر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، 1974.

20. عمر بن قينة: إتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، بن عكنون، الجزائر،1995م.

21. الفضاء الروائي: مجموعة من المؤلفين، ترجمة: ع الرحيم حرزل إفريقيا، الشرق، المغرب، لبنان، د ط.

22. القزويني، زكريا محمد، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، د ت.

23. كمال بلعسل، رحلة أبي حمد الغرناطي، دراسة في قضاء الرحلة، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، تلمسان، 2011م.

24. محمد بن أحمد المقدسي: من أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مختارات غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980.

25. محمد بن تاويت الطنجي، رحلة ابن خلدون، دار السويدي للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003م.

26. محمد بن عثمان المكناسي: الإكسير في فكاك الأسير، تح محمد القاسي المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، د ت.

27. محمد بن عثمان المكناسي: الإكسير في فكاك الأسير، محمد الفاسي المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، د ت.

28. محمد حسين فهيم، أدب الرحلات عالم المعرفة، دار الفنون والثقافة والآداب، الكويت، يناير 1978م.

29. محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي، معددات، وتجلياته مركز دراسات الوحدة العربي، ط2.

30. محمد علي باشا، الرحلة الشامية إرتياد الآفاق، الإسكندرية، د ط، 1910.

31. مرتاض عبد المالك: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 240، ديسمبر 1998م.

32. يقطين سعيد: قال الراوي: المركز الثقافي العربي، طلا، الدار البيضاء، المغرب، 1997م.

33. يوسف وغليسي: في ظلال النصوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، طل، 2009.

- الأطروحات:

34. أحلام معمري: بنية الخطاب السردي في رواية: فوضى الحواس ل: أحلام مستغانمي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة ورقلة، 2004.

35. علاوي الخامسة: العجائبية في أدب الرحلات، ابن فضلان، رسالة لنيل الماجستير أدب عربي، قسنطينة، 2005م.

36. كمال بولعسل: سيمائية القضاء في رحلة أبي حامد الغرناطي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006م.

37. لمبروك اعمر: الفضاء المديني ودوره في التشكيل السردي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الادب المغاربي، كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2013م.

- المعاجم:

38. إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، ج1، دار الدعوة، 1989.

39. الحموي ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995، م1.

40. الفيروز أبادي، القاموس المحيط الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978م.

- المجلات والمقالات:

41. عبد الهادي التازي، أدب الرحلات هل سيختفي من الساحة؟ " "مقال"، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ندوة الرحلات، دار الملك عبد العزيز الرياض ،24، 25 رجب، 1421، ج1.

42. مصطفى عبد الله الغاشي، دراسة الرحلة صورة الشرق من خلال " المعارج المرقبة في الرحلة المشرقية للرافعي التطواني، "مقال"، دار الملك عبد العزيز، "الرياض"، ع 1، السنة الخامسة والعشرون 1420 هـ - 1999م.

43. ناصر بن علي الحارثي، الدراسة المقارنة الطائف في رحلتي العياشي والموسوي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين " مقال"، ندوة الرحلات، دار الملك عبد العزيز.

- المداخلات:

1. مصطفى كيحل: مداخلة، الفلسفة والمتخيل، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة عنابة.

2. مداخلة بعنوان: المنهج البنيوي ثنائية المغلق والمفتوح، دراسة والمناهج التعليمية.

فهرس المحتويات

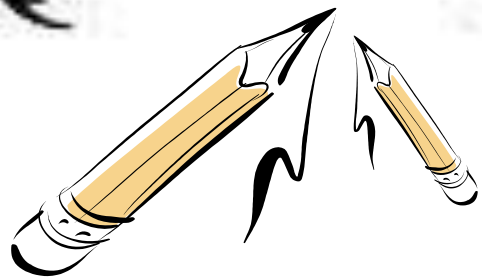

فهرس الموضوعات	الصفحة
شكر وعرفان	
إهداء	
مقدمة	أ-ج
مدخل	05
الفصل الأول: دراسة في المفاهيم	
أولا: مفهوم الفضاء	11
1 – لغة	11
2- الفضاء كمصطلح أدبي	11
3- مصطلح الفضاء اصطلاحا	12
4- أنواع الفضاءات	14
ثانيا: مفهوم المتخيل	16
ثالثا: مفهوم الرحلة	18
1- الرحلة في اللغة	18
2- الرحلة في الاصطلاح	20
رابعا: نشأة أدب الرحلة وتطوره عند العرب	22
خامسا: أنواع الرحلات	26
1- الرحلات العلمية	27
2- الرحلات الدينية	28
3- الرحلات الاقتصادية	29
4- الرحلات الرسمية	29
سادسا: أدب الرحلة في الأدب الجزائري	30
1- أدب الرحلة الجزائرية	30
2- أنواع الرحلات الجزائرية	31
الفصل الثاني: دراسة الفضاءات المفتوحة والمغلقة في رحلة محمد السعيد الورتلاني	
أولا: الفضاءات المفتوحة	37

1- الفضاء المفتوح	37
2- أنواع الفضاءات المفتوحة	41
ثانيا: الفضاءات المغلقة	45
1- الفضاء المغلق	45
2- أنواع الفضاءات المغلقة	46
خاتمة	55
ملاحق	58
قائمة المصادر والمراجع	61
ملخص	

ملخص:

من هذا البحث المعنون بـ" **الفضاء المتخيل في الرحلة الجزائرية** "**الحسين بن محمد السعيد الورتلاني– أنموذجا**"، نحاول من خلاله الوقوف عند الفضاء المتخيل في الرحلة الجزائرية، وقد اعتمدنا على المنهج الوصفي السيميائي لهذه الدراسة.

قسمنا بحثنا إلى مدخل وفصلين، مسبوقين بمقدمة.

الفصل الأول المعنون: دراسة في المفاهيم، تناولنا فيه المفاهيم المشكلة للبحث: تعريف الفضاء – المتخيل – الرحلة بالمفهوم اللغوي والاصطلاحي ثم تطرقنا إلى أنواع الفضاءات، ونشأة أدب الرحلة وتطوره عند العرب، كذلك أنواع الرحلات أدب الرحلة في الأدب الجزائري، وأنواعها.

أما **الفصل الثاني** جاء بعنوان: دراسة الفضاءات المفتوحة والمغلقة في رحلة محمد السعيد الورتلاني، فهو الفصل التطبيقي وجاء فيه: الفضاءات المفتوحة (تعريفها) من حيث هي عامة أو خاصة، ضيقة أو واسعة، وعلى اعتبار أن الفضاء هو عبور إلى الذات وانتقال إلى أفق أوسع، وبالفضاءات المغلقة والتي تعتبر أماكن عامة.

الكلمات المفتاحية: الفضاء، المتخيل، الرحلة، الفضاء المفتوح، الفضاء المغلق.

Abstract:

From this research entitled "Imaginary Space in the Algerian Journey" Al-Hussein bin Muhammad Al-Saeed Al-Wartlani - a model, through which we try to stand at the imagined space in the Algerian Journey, and we have relied on the semiotic descriptive approach for this study.

We divided our research into an introduction and two chapters, preceded by an introduction.

The first chapter entitled: A Study in Concepts, in which we dealt with the concepts formed for the research: the definition of space - the imagined - the journey in the linguistic and idiomatic sense, then we touched on the types of spaces, the emergence and development of travel literature among the Arabs, as well as the types of travel, travel literature in Algerian literature, and its types.

As for the second chapter, it was entitled: The Study of Open and Closed Spaces in the Journey of Muhammad Al-Saeed Al-Wartlani. and closed spaces, which are considered public places.

Keywords: space, imaginary, journey, open space, closed space.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

تصريح شرفي
(خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث)

أنا الممضي أدناه،

السيد(ة): نبيل فحلي الصفة: طالب

الحامل(ة) لبطاقة التعريف رقم 028276578 والصادرة بتاريخ 28/04/12 بدائرة بوسعادة

المسجل(ة) بكلية: **الآداب واللغات** قسم: **اللغة والأدب العربي**

والمكلف(ة) بإنجاز أعمال بحث مذكرة ماستر ، عنوانها:

القضاء المستعجل في التشريع الجزائري " الحبس بموجب السند الرسمي التوثيقي " أنموذجا -

أصرح بشرفي أني ألتزم بمراعاة المعايير العلمية والمنهجية ومعايير الأخلاقيات المهنية والنزاهة الأكاديمية المطلوبة في إنجاز البحث المذكور أعلاه.

المسيلة في

2023/12/11

إمضاء المعني

ملاحظة : أنجزت هذه الوثيقة وفق ملحق القرار رقم: 933 المؤرخ في: 28 -07- 2016 ، الذي يحدد القواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها .

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

تصريح شرفي
(خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث)

أنا الممضي أدناه،

السيد(ة): بوابرية آسيا الصفة: طالب

الحامل(ة) لبطاقة التعريف رقم: 207H2134 والصادرة بتاريخ: 2019/06/18 بدائرة: مسيلة

المسجل(ة) بكلية: **الآداب واللغات** قسم: **اللغة والأدب العربي**

والمكلف(ة) بإنجاز أعمال بحث: مذكرة ماستر ، عنوانها:

الفضاء المتخيل في الرحلة الجزائرية "الحسين بن محمد السعيد الورتلاني" أنموذجا

أصرح بشرفي أني ألتزم بمراعاة المعايير العلمية والمنهجية ومعايير الأخلاقيات المهنية والنزاهة الأكاديمية المطلوبة في إنجاز البحث المذكور أعلاه.

المسيلة في: 2023/05/14

إمضاء المعني

ملاحظة: أنجزت هذه الوثيقة وفق ملحق القرار رقم: 933 المؤرخ في: 28 -07- 2016 ، الذي يحدد القواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها.